

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)

قرآن کریم

محمد بن الفضل بن عبد الله

حق الطبع محفوظ للمؤلف

ماتزم الطبع والنشر

والفكر والعرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله لهدى الخلق في دنياهم ، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم ، وجعل الوصول إلى الحق غايتهم ، وإرادة الخير للناس رائد لهم .

وبعد — فإن الدين قواعد صريحة لا احتيال فيها ، ولا لف ولا دوران في غاياتها ، لأنه يقصد إلى خير الناس ، والقصد إلى الخير لا يحوج صاحبه إلى مداراة ، لأنه ليس فيه ما يخاف أمره ، أو يخشى اطلاع أحد عليه .

والسياسة على عكس الدين في هذا كله ، فلا تسير دائماً على قواعد صريحة ، ولا تتعفف عن قصد الاحتيال واللف والدوران ، وهي بهذا نوعان :

١ — سياسة ملتوية تقصد إلى نفع قوم وضرب آخريين ، فتبيع كل وسيلة في الحصول إلى غاياتها ، ولا تتورع عن إثم ، ولا تتعفف عن ظلم ، وتذهب في هذا مذهبها المشهور — الغاية تبرر الوسيلة — وقد وضع مكيا فيلي الإيطالي في هذه السياسة كتاباً سماه الأمير ، وقد نقله الأستاذ محمد لطفي جمعة إلى العربية ، ولهذا ينسب إليه

ذلك النوع من السياسة . فيقال له — السياسة الميكيفيلية — وهى سياسة لا يديحها دين ، ولا يرضاهم خُلُق شريف ، ولا يمكن أن يسود بها سلام بين الأمم ، لأنها تقوم على أساس التفريق بين الناس ، وتقسيم الشعوب إلى شعوب حاكمة وشعوب محكومة ، ولا شك أن هذا يثير التنافس بين الشعوب القوية فى الاستيلاء على الشعوب الضعيفة ، ويزرع العداوة والبغضاء فى قلوب الشعوب الضعيفة للشعوب القوية ، فتقوم الحروب بين الشعوب القوية فى ذلك التنافس الآثم ، وتقوم الحروب بين الشعوب القوية والضعيفة فى تلك العداوة بينهم .

وقد أخذت أمم أوروبا الحديثة بهذه السياسة الآثمة ، فماتت الأرض حروبا طاحنة أتت على كل شىء فيها ، وعمّتها خرابا وتدميرا ، فلا تنتهى حرب إلا لتقوم أخرى أشد منها ، ولا يعلم إلا الله ماذا تكون نتيجة هذه الحروب على العالم ، لأنها بلغت من الخطورة ما بلغت ، واستعمل فيها من الآلات المدمرة ما يخشى منه على هذا العمران .

ولو كانت هذه الحروب تقصد إلى غاية شريفة لها نفعها ، ولكان هناك أمل فى انتهائها باتفاق الناس على هذه الغاية ، ولكن هذه الحروب لا غاية لها إلا الحكم فى الناس ، والوصول إلى المادة التى أصبحت فى عصرنا أعلى الغايات ، وأشرف المقاصد ، وهذه

الغاية لا يمكن أن يتفق أحد فيها . فلا يمكن أن تنتهي الحروب القائمة بسببها .

٢ — سياسة صريحة عادلة ، تقصد الوصول إلى الحق ، وتبغى الخير للناس ، وتسلك الوسائل المشروعة في الوصول إلى غايتها ، وقد تحتال في هذا ولكنها لا تأتى فيه بما ياباه الخلق الكريم ، لأنها تسعى إلى أشرف الغايات ، وتقصد إلى أشرف المقاصد ، وتعمل على رفع لواء الحق ، وتجاهد في نصر الفضيلة على الرذيلة ، فلا يمكن أن تستبيح في ذلك وسائل غير مشروعة ، لأن الغايات تتأثر بوسائلها ، فإذا كانت وسائلها مشروعة كان غاياتها مشروعة أيضاً ، وإذا كانت وسائلها غير مشروعة كانت غاياتها غير مشروعة أيضاً ، وفي هذا يقال لمن تزنى لتتصدق بأجر زناها : ليتها لم تزنى ولم تتصدق .

وقد جرى الإسلام على هذه السياسة العادلة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، لأن عهد خلافتهم كان أشبه شيء بعهد النبوة ، فاتبع الإسلام في دينك العهدين سبب هذه السياسة في سياسته الداخلية والخارجية ، يبغى الخير لأهله ، ولا يضمم سوء الغير أهله .

فكان يأخذ في سياسته الداخلية باللين في غير ضعيف ، وبالشدّة في غير عفيف ، ويجعل أمر الحكم شورى بين المسلمين ، كما قال تعالى في الآية ١٥٩ — من سورة آل عمران (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ

الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك
فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل
على الله إن الله يحب المتوكلين)

وكان يأخذ فيها بالحزم واليقظة ، فيتتبع أخبار قومه ، ويبحث
عيونه بينهم ليأتوه بها ، حتى لا يغفل عن كل صغيرة وكبيرة بينهم ،
وكان ينفى بهذا خيرهم ، ويحذر الفتنة عليهم ، وهذه يقظة محمودة
في السياسة ، لأن المسلمين كانوا يعيشون بين المنافقين واليهود ،
فكانوا في حاجة إلى سياسة يقظة ترعاهم بينهم ، وتبطل ما يرادهم
من فتنة وكيد ، وكانت هذه السياسة تسمى «المنافقين» ، فينظرون إليها
بعين البغض ، وهذه العين تجعل المدح ذماً ، وتصير الحسن قبيحاً ،
وقد حكى الله هذا عنهم في الآية — ٦١ — من سورة التوبة
(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير
لكم يؤمن بالله ويؤمن للنبيين ورحة للذين آمنوا منكم
والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

وكذلك كان يأخذ بتلك السياسة العادلة في سياسته الخارجية ،
فلم يحد عن قواعد العدل والإنصاف فيما بين المسلمين وغيرهم من
الشعوب المخالفة لهم ، بل نظر إلى الناس كافة كأمة واحدة ،
لا يميز بعضهم على بعض بشى مما يثير العداوة بينهم ، وقد نادى بها
وحدة إنسانية صريحة في الآية — ١٤ — من سورة الحجرات

(يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) وكان من أثر هذه النظرة السكرية في الإسلام أن أخذ يدعو إلى الوئام ، ويأمر المسلمين بالدخول في السلم العام ، وبينها أن يعتدوا على من لم يعتد عليهم من الأمم ، ويرغبهم في الصفح عن اعتدائهم عليهم ، ويحذرهم من الظلم والبغي على غيرهم ، كما قال تعالى في الآية — ٢٠٨ — من سورة البقرة (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وفي الآية — ٦١ — من سورة الأنفال (وإن جنتحوا للسلم فاجنتح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) وفي الآية — ١٩٠ — من سورة البقرة (وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وفي الآية — ٤١ — من سورة الشورى (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحبُّ الظالمين) وفي الآية — ٨ — من سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبُّ المقسطين) .

وقد جاء سبيل الدعوة في الإسلام موافقاً لتلك النظرة الانسانية العامة ، فهي دعوة سلمية تعتمد على الإقناع ، وتأخذ الناس بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ولا تأخذهم بشيء من العنف أو القوة ، كما قال تعالى في الآية — ١٢٥ — من سورة النحل (اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

وقد أردت أن أفصل هذه السياسة في كتابين : أولهما كتاب السياسة الإسلامية في عهد النبوة ، وثانيهما كتاب السياسة الإسلامية في عهد الخلافة الرشيدة ، وهما العهدان اللذان يحسبان على الإسلام ، ويهمننا أمرهم معشر المسلمين ، وهذا هو الكتاب الأول منهما ، وسيتلوه الكتاب الثاني إن شاء الله تعالى .

وقد أجمع الله السياسة التي سنفصلها في هذين الكتابين في قوله تعالى في الآية — ٨ — من سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) عدل وتقوى شاملان ، ينعم بهما الداخل في الإسلام والخارج عنه ، ولا يختص بهما المسلمون وحدهم ، فالفضل في تقرير ذلك للقرآن الكريم ، ولا فضل للكتابين إلا في ذلك التفصيل ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل ؟

السياسة الداخلية قبل الهجرة

(١) التلطف في بدء الدعوة

تتعلق السياسة الإسلامية بأمور الحكم الداخلية والخارجية ، ويتعلق الدين بالعبادات والمعاملات بين الأفراد ، وللدين مع هذا الحكم على السياسة ، ليرشدها إلى السبيل القويم ، ويصرفها عن الطرق الملتوية التي تسلكها السياسة الآثمة .

وقد أخذت الدعوة الإسلامية بالسياسة الحكيمة من أول ظهورها ، فسارت هذه السياسة معها جنباً لجنب ، ترعاها بحكمتها ، وتعمل على نجاحها بكل فطنة وبراعة ، وتسلك بها السبل التي تبعدها عن وسائل القوة ما أمكنها ، لتحفظ دماء أتباعها ، وتجذب بالحكمة أعداءها إليها ، ولا تنفرهم باستعمال وسائل العنف ، فسلكت في أول ظهورها وسيلة التلطف ، وأخذت فيه بسنة التدرج ، وعملت في هذا بما تقضى به فلسفة النشوء والارتقاء قبل أن يهتدى إليها داروين الأنجليزى في عصرنا ، لأن الله تعالى لم يرد أن يأخذ الناس فيها بما كان يأخذهم به في الشرائع السابقة ، من آيات العذاب التي كانت تقضى عليهم ، ولا يمهلون فيها كما أمهلت أمة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا يجاوزون الحد في الكفر

واللطيفان ، ولم يكونوا بحيث يرجي منهم هداية أو إيمان ، فأخذ بعضهم بالطوفان كقوم نوح عليه السلام ، وأخذ بعضهم بالريح العاتية كقوم هود عليه السلام ، وأخذ بعضهم بالرجفة كقوم صالح عليه السلام ، إلى غير هذا مما أخذت به الأمم البائدة ، فذهبت به آثارهم ، ولم يبق بعدهم إلا حديث عذابهم .

وقد أراد قوم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمثل تلك الآيات ، فلم يجبههم إليها ، لأن الله يريد أن يأخذهم برحمته ولطفه ، ويمهلهم إلى أن يؤمنوا بهذه الدعوة ، وقد أراد بقاءها من بين الشرائع التي أرسل بها الرسل ، فلتبقى أمتها لتؤمن بها ، وتؤدي رسالتها إلى الناس كافة ، وفي هذا يقول الله تعالى في الآيتين — ٣٢ ، ٣٣ — من سورة الأنفال (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فلم يكن شأنهم في هذا كشأن الأمم السابقة ، ولهذا أمهلوا ولم يؤخذوا بآيات العذاب كما أخذ غيرهم .

وكان من سياسة التلطف في بدء هذه الدعوة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبدأ بها رؤساء قومه ، فلم يقصدهم بها في أول أمره ، كما قصد موسى فرعون في أول أمره ، لأن هذا يشير عداوتهم لها في أول أمرها ، ويجعلها مفاجأة لا تنجح في جذب أحد إليها ،

وتحمل هؤلاء الرؤساء على أن يقضوا عليها قبل أن يفتتن أحدها .
فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في أول أمره من كان
يثق به ، فدعا من أهل بيته وزوجه خديجة رضي الله عنها ، وابن
عمه عليا رضي الله عنه ، وكان غلاماً قد أخذه من عمه أبي طالب
لكثرة أولاده ، وزيد بن حارثة مولاه ، وكان قد تبناه فصار يدعى
له ، ودعا من غير أهل بيته أبا بكر رضي الله عنه ، وكان صديقاً
له قبل بعثته .

وقد أكرمه الله بإسلام زوجته خديجة رضي الله عنها ، فإنها
وازرته على أمره وخففت عنه ما كان يلقاه من أعباء رسالته ،
إذ كان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه
ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه وتصدقه
وتهون عليه أمر الناس ، فيهون عليه ما يلقاه منهم .

وقد أكرمه الله أيضاً بإسلام أبي بكر رضي الله عنه ، لأنه كان
رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، مؤلفاً لقومه ، محبوباً سهلاً ،
وكان أنسب قریش لقریش ، وأعلم قریش بها وبما كان فيها من
خير وشر ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من
من الأمر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

فلما أسلم جعل يدعو من يثق به من قومه من كان يمشي ويجلس
إليه ، وقد أسلم بدعوته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ،

وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وقد جاء بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له ، فأسلموا بين يديه ، وآمنوا بدعوته .

وهكذا آمن به أولئك الثمانية في أول أمره من أهل بيته ، ومن أقرب أصدقائه إليه ، وكان إسلامهم على ذلك الوجه من التلطف في الدعوة ، فظهرت في أول أمرها رقيقة هادئة ، لم تستر جباراً من جبابرة الأرض ، فيقابلها بالشدة والعنف ، ويحاول القضاء عليها بالطغيان والظلم ، ويشدد الأمر بينها وبينه ، إلى أن يأخذ الله بعذابه ، فيهلكه وقرومه بآية من الآيات ، ولا تنجح الدعوة فيهم ، ولا يهتدى بها أحد منهم .

وقد آمن بها أولئك الثمانية لأنهم اقتنعوا بصدقها من أنفسهم ، ولم يطلبوا معجزة على صدقها ، كما طلب أولئك الجبارون المعجزات من قبلهم ، بل رأوها تدعوهم إلى مكارم الأخلاق ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لله ، وتنههم عن عبادة الأوثان والأصنام ، إلى غير هذا مما تشهد بصحته الفطرة السليمة ، ويؤمن بصدقها العقل الصحيح ، فكفاهم هذا في الإيمان بها ، ولم يحتاجوا معه إلى طلب آية على صدقها ، وما أقوى الإيمان الذي يقوم على أساس الإيمان بالدعوة لذاتها ، ولا يحتاج إلى شيء آخر خارج عنها ، وأين منه ذلك الإيمان الذي يأخذ النفوس بالمعجزات ، فلا يثبت إلا في

عهدهما ، ثم يأخذ في الضعف شيئاً فشيئاً كلما بعد به العهد ، وطال عليه الأمد ، إلى أن يمحى أثره في النفوس ، فيحل الكفر فيها محله ، وتعود إلى مثل ما كانت عليه قبل الإيمان ، وتنسى تلك المهجرات أو تشك في أمرها ، وتؤثر الكفر على الإيمان الذي لم تأخذه عن اقتناع به .

(٢) إخفاء الدعوة

استمرت الدعوة الإسلامية تأخذ قريشاً بسياسة التلطف ، يدعو الآخذون بها من يشقون به من أصحابهم ، فلم تحدث ضجة بين قريش ، ومرت أيامها الأولى عليها وهي لا تشعر بأنها أمام دعوة مستقلب كل شيء فيها ، وتغير معالم حياتها ، وكان الذين آمنوا بهذه الدعوة إذا أرادوا الصلاة أو نحوها من أمور دينهم ، قصدوا بعض الشباب التي حول مكة ، فأدوا ما يريدونه بعيداً عن قومهم .

ولم يزالوا على هذا الحال حتى خرج سعد بن أبي وقاص في جماعة من أصحابه إلى بعض شعاب مكة ، ليؤدوا صلاتهم فيه على عادتهم ، فرآهم نفر من مشركي قومهم وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يضمنون ، وانتقل الأمر بينهم من المناكرة إلى إلى الخصامة والمقاتلة ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحى جمل من العظام المنشورة هناك فشهجه .

وهنا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يزيد شيئاً في سياسة التلطف، حتى لا يمكن قومه من مشاهدة دعوته في بدنها ، ولا يمكنهم من فتنة من آمن به قبل أن يتمكن الإيمان من قلبه ، فلجأ إلى إخفاء دعوته عنهم ، وبالفعل بهذا في سياسة التلطف التي اختارها لأول دعوته ، لأنه لا يريد الاصطدام بقريش في هذا العهد ، بل يريد أن يتفرغ لتمكين دعوته من نفوس أتباعه ، حتى يظهر بهم وقد امتزجت دعوته بدمائهم ، فيضحوا فيها بكل عزيز لديهم ، ولا يمكن قومهم أن يفتنوهم فيها بما سيلاقونه من التعذيب والتشريد

فاختار له ولأتباعه داراً منعزلة عن دور مكة ، وكانت تقع بأصل جبل الصفا ، وهو من مشاعر مكة بل تحف جبل أبي قبيس ، ويوجد هذا الجبل بالجنوب الشرقي من مكة . وكانت هذه الدار لواحد من أتباعه يسمى الأرقم بن أبي الأرقم الخزومي ، فاتخذها مختبأ لهم ، يدعو فيها سرّاً إلى دينه ، ويعلم فيها أتباعه أصول هذا الدين وفروعه ، ويؤدى فيها شعائره من صلاة ونحوها ، فتغنيه عن الذهاب إلى تلك الشعاب التي كان يؤدى فيها هذه الشعائر أولاً ، فيراه فيها من يذهب إليها من قومه ، ويكون هذا سبباً في اصطدامه بهم .

وقد مكث في هذه الدار أربع سنين يدعو فيها سرّاً ، ويبالغ في التخفي بدعوته عن قومه ، حتى مرت هذه السنون بهم وهم

لا يشعرون بها ، ولا يأبهون بأمرها ، ولا يدركون خطر ما يدبر في هذه الدار من حوادث جسام ، وأمور عظام ، ستظهر لهم في يوم من الأيام ، فتشغلهم عن كل شيء في حياتهم ، وتكون وحدها حديث مجالسهم وأنديتهم .

وكانت سياسة التلطف في الدعوة لا تجذب إليها إلا القليل من قريش ، فسارت بها في بطء وتمهل ، ولكنها كان الطريق الآمن لها ، والوسيلة جامع المخلصين من الأهل والأصحاب ، فلا يدخل فيها إلا من يقتنع بصدقها ، وإلا من يشق به أعصابها ، ولا ينحسر بينهم من يتجسس عليهم ، أو يسعى في إفساد أمرهم .

على أنه لا بد أن قريشا كان يبلغها شيء من أمر هذه الدعوة ، ويصلها شيء من أسرارها ، ولكنها كان يصلها في صورة مهمة لا تثيرها عليها ، ولا تحركها إلى مناهضتها ، وقد كان له فائده في تخفيف شيء من أمرها عليهم ، وفي إحداث شيء من الإلفة لها في نفوسهم ، حتى إذا ظهرت بينهم لا يأخذهم بها عامل المفاجأة ، فلا يسرفون في محاربتها ، ولا يطغون في مناهضتها كما طغت الأمم من قبلهم ، فيأخذهم الله بمثل ما أخذهم به من العذاب ، ولا يمهلهم حتى يعرفوا صدقها من أنفسهم . فما أبرع تلك السياسة التي يكون لها كل تلك الآثار ، ولا تقتصر فائدها على الاتباع والأنصار ، بل تتعداهم إلى الخصوم والأعداء ، فتقوى من نفوس أتباعها

وأَنْصَارَهَا ، وتستعين بالزمن على تخفيف خصومة أعدائها، ليشمل
نفعها أنصارها وأعداءها ، ولا نصير إلى كارثة ينتهي بها أمرها .

(٣) التدرج في إظهار الدعوة

مكث النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة في الدعوة السرية ،
والأخذ بتلك السياسة التي تجنبه الاصطدام بقومه ، حتى آمن به
اثنان من أقوى قومه بأسماً وشجاعة : وهما عمر بن الخطاب
العُصْدَوِيُّ ، وحمزة بن عبد المطَّاب عم النبي صلى الله عليه وسلم ،
وكان إسلام عمر بعد إسلام حمزة ، فلما أسلم كبير من في المختبأ
(دار الأرقم) تكبيرة سمعها كل من بالكعبة ، وفرحوا بإسلامه
فرحاً عظيماً ، لأنه كان أقوى أهل مكة ، وكان لا يخاف في الحق
لومة لائم .

فلما أسلم قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟

قال : بلى

فقال :

ففيهم الاختفاء ؟

ولم يزل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى استجاب له في الجهر
بالدعوة ، فجمع من آمن به في تلك الدار التي كان يجتمع بهم فيها

صراً ، ثم خرج بهم إلى الكعبة في صنفين : عمر أمام أحدهما ،
وحزمة أمام الثاني ، وكل واحد منهم شاهر سيفه ، فأخذوا طريقهم
إلى الكعبة في هذا النظام الذي لم يكن للعرب عهد به ، فلما وصلوا
إلى الكعبة صلوا فيها خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجعوا
في ذلك النظام إلى الدار التي خرجوا منها ، فأصابته قریشا كآبة لم
يصبهم مثلها ، لأنهم رأوا ديناً جديداً يخالف دينهم ، والدين ينزل
من الناس منزلة الروح من الجسد ، فيصعب عليهم أمره ، ويؤلمهم
كل ما يؤلمه .

(٤) البدء بدعوة الأقربين

انتقل النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بالدعوة إلى سياسة
تؤدي به إلى الاصطدام بقریش ، ولكن الله تعالى لم يرد له الاصطدام
بهم كلهم في أول الجهر بدعوته ، ليتدرج به في طريق الدعوة ،
ويأخذ به في طريق التلطف في الدعوة الذي اختاره له ، فأمره أن
يقتصر أولاً على دعوة عشيرته الأقربين ، وأنزل في هذا قوله في
الآيات — ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ — من سورة الشعراء (وأنذر
عشيرتك الأقربين ، وانخفض جناحك لمن اتبعك من
المؤمنين ، فإن عصوك فتقل : إني بريء مما تعملون) .

يُسمع النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين ، وهم بنو

عبد المطلب ، وكانوا خمسة وأربعين ، وصنع لهم طعاماً ، فلما أكلوا قال لهم :

يا بني عبد المطلب ، إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة ، وبعثنى إليكم خاصة ، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازنني على القيام به ؟

فتكلم القوم كلا مالينا غير عمه أبي لهب ، فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتوه إذن ذلتم ، وإن منعتموه قتلتهم .

فقال عمه أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

وقيل إن عشيرته الأقربين هم بنو عبد مناف ، وقد جمعهم فقال لهم :

إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فتكلم القوم كلاماً لينا ، وتكلم أبو لهب بما سبق ، ورد عليه أبو طالب بما سبق .

وهنا تتجلى براعة الإسلام وسماحته ، وهنا تظهر مرونته السياسية ، فيستجيب لمن يعاونه على دعوته ولو لم يؤمن بها ، لأن أبا طالب أراد أن يقوم بحماية النبي صلى الله عليه وسلم لقرايته منه على أن يبقى على دين قومه ، ولا يؤمن بما جاء به ، ووافقه على هذا كثير من بني عبد مناف ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه ذلك ، ورضى أن يقوم بحايته على أن يبقى على دينه ، ولو كان غيره في مكانه من أهل الجود في الدين والسياسة لطلب منه أن يؤمن أولاً ، ولرفض حمايته إذا أبي إلا أن يبقى على شركه ، ولكن الإسلام يمتاز على غيره من الأديان بأنه يتسع لأهله وغيرهم ، فلا يأبى أن يمد يده لمن يعاونه في أمره ولو لم يؤمن به .

وقد وقعت قریش بهذا في مشكلة من أخطر المشاكل السياسية التي وقعت فيها ، لأنها صارت أمام بطن قوية من بطونها توافقها في التمسك بدينها ، وتخالفها فيما رأت من حماية هذه الدعوة التي تناهضها ، فهي تخشى إن أغضبت هذه البطن أن تحملها على الإيمان بهذه الدعوة ، فيؤثر هذا في غيرها من البطون ، وتتفلسف منها إلى هذه الدعوة بطناً بعد بطن ، وهي مع هذا لا يمكنها أن تغض النظر عن هذه الدعوة بعد أن ظهرت سافرة بينها .

فجعلت قریش تتروى في أمرها بإزاء هذه المشكلة الخطيرة ، ثم رأت أن تأخذ تلك البطن التي وقفت في نصف الطريق بينها وبين

هذه الدعوة باللين تارة ، وبالشدة أخرى ، فإذا عاملتها بالشدة لم
تمض فيها إلى الحد الأقصى ، ولم تصرف فيها إلى حد الطغيان الذي يجعل
بعقابها في الدنيا ، وذلك تدبير من الله تعالى لأهل هذه الدعوة ،
ولطف منه بهم ، لأنه يعلم أنهم سيخالفون ما يخالفون ثم يصيرون
إلى الإيمان بها .

(٥) دعوة قريش

فلما وجد النبي صلى الله عليه وسلم أنه أصبح في حماية عمه أبي
طالب وبنى عبد مناف ، تدرج من دعوتهم إلى دعوة بطون قريش
كلها ، فصعد على جبل الصفا وجعل ينادى : يا بني فهر ، يا بني عديّ
— لبطون قريش . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا
ليُنظر الخبر ، فجاء أبو هب بن عبد المطلب ، وجاءت قريش كلها .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا
يالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟
قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا

فقال لهم : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد
فقال أبو هب : تبّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟

فأنزل الله تعالى فيه سورة المسد (تبّت يدَا أبنِي هُب وَتَب ،
مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلِي نَارَ آذَاتِ هُب ، وَإِمْرَأَتُهُ

حمالة الخطب ، في جيدها حبلٌ من مسند)

وهنا بدأ الكفاح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم ، وقام أبو طالب بحمايته وهو على دين قومه ، فكانوا يراعون في كفاحهم حمايته له ، ولا يشتهون في ذلك الكفاح ، لئلا يغضبوا عمه أبا طالب ، وكان شيخ قریش فضلاً ونبلاً ، وله من سنه وانتسابه إلى عبدالمطلب ما جعله موضع احترامهم وهيبتهم ، وقد زاد في هذا أنه كان يحافظ على دينه ، ولا يؤمن بهذه الدعوة التي يحميها .

وقد ذهبوا يوماً إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تحلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه

فقال أبو طالب لهم قولاً رقيقاً . وردهم رداً جميلاً

ثم ذهبوا إليه بعد هذا فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإننا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم هذا على أبي طالب ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا — الذي

كانوا قالوا له — فأبقي على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بدام ، وأنه خاذله ومسله ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر فبكى ، ثم قام

فلما ولي ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخي . فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لشيء أبداً

فلما عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان النبي صلى الله عليه وسلم ، ذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، نخذه فلك عقله ^(١) ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل

فقال أبو طالب لهم : لبئس ما تسوموني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ؟ وأعطيتكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبداً

(١) أي دينه إذا قتل .

فهذا كله كان من أثر السياسة الحكيمة التي اتبعتها الإسلام في قبول حماية أبي طالب وإن لم يؤمن به ، وقد بلغ من توفيق هذه السياسة أنها كادت تحمل أبا هلب أشد خصوم الإسلام على حمايته ، وذلك أن أبا سلمة كان ابن أخته ، وكان قد هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها من المسلمين ، ثم رجع إلى مكة مع من رجع إليها منهم ، فنزل في جوار خاله أبي طالب ، فمضى إليه قومه بنو مخزوم وقالوا له : يا أبا طالب ، ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

فقال أبو طالب لهم : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي

فلما رأهم أبو هلب يصنعون هذا مع أخيه أبي طالب قام إليهم فقال : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهنَّ عنه أو لنقوم من معه في كل ما قام به حتى يبلغ ما أراد

فقالوا لا نرى لهب : بل ننصرف عنه يا أبا عتبة

وكانت الأيام لا تزيد ما بين المسلمين وبنو عبد مناف إلا قوة ، وتجعل ما بينهم شبه تحالف لا تنقسم عراه ، ولا تضعف قوته ، حتى ضاقت قريش بذلك التحالف بينهم ، فأجمعت أمرها على مقاطعة بني هاشم وبنو المطلب ولدى عبد مناف ، وإخراجهم من

مكة ، لأنهم كانوا أشد بني عبد مناف دفاعاً عن المسلمين ، فأنحازوا
في شعب أبي طالب ، وأخذت قريش تضيق عليهم ، فلا تبيعهم
شيئاً ولا يتباع منهم ، إلى غير هذا من وجوه المقاطعة ، وكتبت
بهذا صحيفة وضعتها في جوف الكعبة .

فجهد القوم في ذلك الشعب ، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ،
وقد استمروا فيه ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء ، لا يصلهم
شيء من الطعام إلا خفية ، ثم رق لهم نفر من أشراف قريش ،
فقاموا يطالبون بنقض هذه الصحيفة ، وهم هشام بن عمرو والعامري ،
وزهير ابن أبي أمية المخزومي ، والمطعم بن عدي النوفلي ،
وأبو البَخْتَرى بن هشام الأسدي ، وزمعة بن الأسود الأسدي ،
وقد اتفقوا على ذلك ليلاً ، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة
فطاف بالبيت ، ثم أقبل على الناس فقال :

يا أهل مكة ، أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم والمطلب
هلكي ؟ لا يبيعون ولا يتباعون ، والله لا أقعد حتى تشق هذه
الصحيفة القاطعة الظالمة

فقال أبو جهل : كذبت

فقال زمعة لأبي جهل : أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها

حين كتبت

فقال أبو البخترى : صدق زمعة

وقال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك
وقام هشام فوافقهم على ذلك
ثم قام المطعم إلى الصحيفة فشققها ، فخرج القوم إلى مساكنهم
وزالت عنهم تلك الشدة

(٦) الهجرة إلى الحبشة

ثم مضى الأمر بين قريش والمسلمين على هذا الحال ، وكان
أكثر المسلمين تعرضا لأذى قريش من لم يكن له نسب قوى بينها ،
كبلال بن رباح وخبّاب بن الأرت ، وكان بلال مملوكا لأمية بن
سُخْلَف ، فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه إلى الصبيان يلعبون
به ، فيقول وهم يلعبون به — أحد أحد — وكان أمية يخرج به في
وقت الظهيرة إلى الرمضاء ، وهي الرمل الشديدة الحرارة ، ولو وضعت
عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على
صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد
وتعبد اللات والعُزَّى . فيقول : أحد أحد . وقد اشتراه منه أبو بكر
وكان خباب له مولاة تسمى أم أنمار ، فكانت تأتي بالحديدة
المحاة فتجعلها على ظهره ليكفر ، فلا يزيده هذا إلا إيمانا ، وقد
جاء يوما إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برعده في ظل
الكعبة ، فقال : يا رسول الله ، ألا تدعو الله لنا . فقعد النبي صلى الله

لا بُدَّ أن تبدأ أولاً بالعرب ، لأنهم أقرب الشعوب إلى فهمها ،
إذ نزلت بلغتهم ، وكانت معجزتها قرآنا عربيا لا يدرك إعجازه
غيرهم .

وقد هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة ، فهاجر في المرة الأولى
عشرة رجال وخمس نسوة ، فلبثوا فيها ثلاثة أشهر ، ثم واصلتهم
شائعة بأن قومهم أسلموا ، فرجعوا إلى مكة فوجدوا أهلها باقين
على دينهم ، وقد منعوهم من دخولها إلا من وجد له مجيرا من
المشركين ، فدخل كل واحد منهم في جوار من قبل جواره منهم .
وقد دخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم
رد عليه جواره ، لأنه كان شديدا على المسلمين ، وقد اجتمع عثمان
يوما هو ولأبيد بن ربيعة في بعض أندية قریش ، فأنشد أبيد :
... ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ .

فقال عثمان له : صدقت

فقال أبيد :

... وكل نعيم لا محالة زائلٌ .

فقال عثمان له : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول

فقام بعض أهل المجلس فلطم عين عثمان فاخضرت ، فقليل له :

لقد كنت في ذمة منيعة ، وكانت عينك غنية عما لقيت . فقال :

جوار الله آمنٌ وأعزُّ ، وعيني الصحيحة فقيرة إلى ما لقيت أختها

ثم هاجر المسلمون ثانيا إلى الحبشة ، وكانوا هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا ، وثمانى عشرة امرأة ، فأقاموا بها إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقد أكرم ملكها وفادتهم ، وقبل حمايتهم من قومهم ، وقد أرسلت قريش إليه رجلين بهدايا ليردهم إليها ، فردهما خائبين ، ولم يقبل أن يمكن أولئك المشركين من قوم لا يعبدون الأصنام مثله .

(٧) العرض على القبائل

أيس النبي صلى الله عليه وسلم من قريش أن تقوم بنصرته ، وكانت عنجهية الجاهلية قد بلغت فيها أقصى حد ، لأنها وصلت في ذلك العهد إلى درجة الزعامة في جزيرة العرب ، وقد اتفقت كلتها بعد حروب الفِجْجَار بينها وبين كنانة ، وصارت إلى ثراء لا يقدر بتجارها في الأسواق التي كانت تقوم بمكة في مواسم الحج ، كسوق عسكاظ وذى المجنَّة ، وكان العرب يتصدونها من سائر بلادهم ، وكان وفود الأمم المجاورة لهم يبعثون إليها بتجارتهم ، وهذا إلى رحلتها التجاريتين إلى اليمن والشام كل سنة ، وهما الرحلتان اللتان وردتا في سورة قريش (لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، السدى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)

فصارت قريش بهذه التجارة الواسعة إلى حالة شغلها بالدنيا ومادتها ، وبعدت بها عن الدعوة الإسلامية التي تسمو بالروح ، ولا تجعل للمادة هذا الشأن الذي تجعله لها قريش ، وقد بلغ من تغاليها في أمر المادة أن شكا منها بعض شعرائها ، فقال :

ألهي قريشاً عن الجهد الأساطير^(١) ورشوة^٢ كما ترشى السفاسير^(٣)
وأكلها اللحم بحثاً لا خليط له وقولها رحلت^٤ غير^٥ أتت غير^٦

وهذا إلى ما كان لها من الزعامة الدينية على العرب ، إذ كان إليها أمر الكعبة التي كانوا يحجّون إليها ، فلم يكن من السهل عليها أن تفرط في تلك الزعامة التي تستفيد منها مادياً وأدبياً .

ف رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض دعوته على القبائل العربية التي تسفد^٧ إلى مكة في موسم الحج ، وعلى البلاد المجاورة لمكة كالطائف ، وقد سار إلى الطائف ومعه مولاة زيد بن حارثة ، وكان رؤساؤها عبد بن ليل ومسعودا وحبيبا أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، فعرض عليهم أن ينصروه ويؤمنوا به ، فردوا عليه ردا قبيحا ، فلما لم يرضهم خيرا طلب منهم ألا يخبروا قومه بالتجائه إليهم ، فلم يجيبوه إلى هذا وأخبروا قومه بفعله ، فاشتد غضبهم عليه ، ولم يمكنوه من دخول مكة ، فأرسل إلى المطعم بن عدي^٨ يخبره أنه سيدخل في جواره ، فأجابه المطعم إلى ذلك ، وتسليح هو وأبناءؤه

(١) السفاسير السامرة :

ليمنعوا من يقصده بسوء ، ثم توجهوا به إلى السكبة فطاف بها ،
فقال بعض المشركين للمطعم : أجبير أنت أم تابع ؟
فقال : بل مجير . فقالوا : إذَنْ لا تخفر ذمتك .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقطع عن عرض دعوته
على القبائل ، فكان بعضهم يرد ردا جميلا ولا يقبل حمايته ، وبعضهم
يرد ردا قبيحاً . وقد عرض نفسه على بني عامر ، فقال رجل منهم
يقال له بيجرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتي من قریش
لأكلت به العرب . ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن
نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أیكون
لنا الأمر بعدك ؟ فقال له : الأمر إلى الله يضعه حيث شاء . فقال :
أفنهذف نحورنا للعرب دونك ؟ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟
لا حاجة لنا بأمرک

وهذه هي سياسته الصراحة التي لا تسمو إليها تلك القبائل البدوية ،
وقد كان الإسلام دعوة دينية كريمة لا تهمة تلك الغاية أرادها ذلك
الرجل ، ولا يقبل أن يساوم عليها في دعوته ، فمن أراد أن يؤمن
بها فليكن إيمانه خالصاً لوجه الله تعالى ، لا لغاية من إمارة أو
ملك أو نحوهما من أمور الدنيا ، ولو كان غير النبي صلى الله عليه
وسلم من طلاب الدنيا في مكانه لقبل تلك المساومة ، ويفعل الله
بعد هذا ما يفعل ، فيأخذهم بسياسة الخداع ، ومن السهل على هذه
السياسة نقض العهد ، ونبد المواثيق

(٨) العرض على أهل يثرب

ثم أذن الله لهذه الدعوة أن تأخذ حظها من الظهور ، وقد مكثت أكثر من عشر سنين في مكة ، فلم يؤمن بها إلا قليل من أهلها ، وقد هاجر أكثرهم منها إلى الحبشة ، فساق إليها نفرا من أهل يثرب في موسم من مواسم الحج ، وهذه المدينة تقع بين مكة والشام ، وكان يسكنها قوم من العرب واليهود ، وكان العرب ينقسمون إلى قبيلتين (الأوس والخزرج) وقد انقسموا على أنفسهم ، وقامت بينهم حروب أضعفت أمرهم ، أما اليهود فقد وضعوا أيديهم على أهم المرافق في هذه المدينة ، وكانت بأيديهم صناعاتها وتجاراتها وما إلى هذا من مرافقها ، فأتسعت بها ثروتهم ، وقامت لهم بها حصون وآطام

فلم يكن لعرب يثرب ما لقريش بما جعلها تأبى تلك الدعوة ، بل كانت مجاورتهم لليهود تجعلهم أقرب إليها من غيرهم من العرب ، لأنهم كانوا يسمعون منهم أحاديث عن نبي يبعث في آخر الزمان ، فينصر دين الله على سائر الأديان ، ويبطل عبادة الأصنام والأوثان . وكان أولئك النفر ستة رجال ، وكانوا كلهم من الخزرج ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فقال بعضهم لبعض : إنه للنبي الذي كان تعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه . ثم أجابوه

إلى الإسلام ، وقالوا له : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ،
فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم وعدوه أن يقابلوه
في الموسم المقبل .

فلما كان الموسم المقبل قدم منهم إلى مكة اثنا عشر رجلا : عشرة
من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم
عند العقبة ، وقد عرض عليهم الإسلام فأسلموا ، ثم بايعوه على
بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض الحرب

فبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا ينزوا ،
ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ،
ولا يعصوه في معروف ، فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من
ذلك شيئا فأمرهم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء
عذب .

وهذه مبايعة دينية محضة ، وقد اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم
عليها ولم يطلب منهم مبايعة سياسية يتهاونون فيها على حماية
دعوته ، لأنهم كانوا عددا قليلا لا يكفي لهذه الحماية ، ولم يكن
الإسلام قد شاع بين قومهم حتى يطلب ذلك منهم .

وهذه البيعة تسمى بيعة العقبة الأولى ، وقد أرسل النبي صلى الله
عليه وسلم معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم ، ليدعوا
قومهم إلى الإسلام ، ويعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، فقاما

بنشر الإسلام بين أهل يثرب ، حتى دخل فيه كثير منهم ، وصار
له شأن كبير بينهم

(٩) مخالفة أهل يثرب

لما كان الموسم الذي يلي بيعة العقبة السابقة قدم جمع كثير من
أهل يثرب إلى مكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ،
فتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم أن يوافوه بالعقبة ليلة النّفسر
الأول ، وقد أمرهم ألاّ يذهبوا نائما ، ولا ينتظروا غائبا ، وكان معهم
مشركون من قومهم فأخفوا هذا عنهم .

فلما كان الموعد خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر
وعلى وعمه العباس وهو على شركه ، فأوقف العباس عليا على فم
الشّعب عينا له ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينا ،
ثم سار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جلسوا كان العباس
أول من تكلم ، فقال :

يا معشر الخزرج — وكان يطلق على ما يشمل الأوس — إن محمدا
منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا بمن هو على مثل رأينا ، فهو
في عز من قومه ، ومنعة في بلد ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم ،
واللحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ،
وما دعوه من مخالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون

أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن تدعونه ،
فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

ثم قام العباس بن عباد من أهل يثرب ، فقال لقومه : هل
تدرون علام تبائعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم

فقال : إنكم تبائعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ،
فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل^{تم}
أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ،
وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال
وقتل الأشراف نخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة

قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف
ثم توجهوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له فما لنا بذلك
يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال : الجنة

فقالوا : أبسط يدك

فبسط يده فبايعوه

فلما قام يبايعهم تكلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في
الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمتنعوني عما تمتنعون منه نساءكم
وأبناءكم ، وفي رواية أنه قال : تبائعوني على السمع والطاعة ، في

الفساط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة

فقام البراء بن معرور فأخذ بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزونا^(١) فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقمة^(٢) ورثناها كبراً عن كابر

ثم تتابع القوم بعد البراء ، فعقدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية ، ثم قالوا : يارسول الله ، إنا برآء من ذمتك حتى نصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا

ثم قام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالة — يعني اليهود — وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال . بل الدّم الدّم ، والهدم الهدم^(٣) أنا منكم وأنتم مني ، أمارب من حاربتكم ، وأسلم من سلمتم

(١) نساءنا ، لأن المرأة يكنى عنها بالإزار

(٢) إهدار الدماء

(٣) السلاح

وكانت هذه البيعة في السنة الثالثة عشرة من البعثة ، وهي تشتمل على معاهدة دفاعية من أهل يثرب ، ودفاعية هجومية من جانب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قريش ، لأن أهل يثرب لم يتعهدوا في بيعتهم إلا بالدفاع عنه ، فإذا هاجم أعداءهم لم يلزمهم أن يشاركوه في هجومه ، أما هو فقد ذكر أنه يحارب من حاربوه ويسالم من سالموه ، فيشاركهم في هجومهم ودفاعهم ، وقد أعطاهم بهذا أكثر مما أخذ منهم ، وهي سياسة نبيلة قابل بها ما أبدوه من التحمس في الدفاع عنه ، وسيكون لها أثرها في نفوسهم بعد هجرته إليهم

فلما فرغوا من البيعة قال لهم : ارفضوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عباد : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فئنا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم

وقد بلغ خبر هذه البيعة قريشاً ، فجمعوا إلى أهل يثرب فقالوا لهم : بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجوه من أرضنا ، وتبايعوه على حربنا . فأنكروا ذلك ، لأنهم لم يبايعوه على حربهم ، وإنما بايعوه على الدفاع عنه ، ولكنهم لم يخبروهم بذلك ، وإنما أنكروا ما نسبوه إليهم ، وصار بعض المشركين من أهل يثرب يحلفون لهم أنه لم يحصل من قومهم مبايعة له في ليلتهم ، لأن من حضرها من مسلمي قومهم أخفاها عنهم

(١٠) الهجرة إلى المدينة

أخذت قريش تبحث عن خبر هذه المبايعة حتى عرفت صدقه ، وكان هذا بعد أن خرج أهل يثرب إلى بلادهم ، فاقتفوا آثارهم فلم يدركوا إلا سعد بن عبادَةَ والمنذر بن عمرو ، فأما سعد فأمسك وعذَّب ، وأما المنذر فأفلت ، ثم أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين إذ رآه أبو البختريّ يعذب فقال له : ويحك ما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد . فقال : بلى كنت أجير لجبير بن مطعم تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية . فقال له : ويحك فاهتف باسم الرجلين . ففعل ، فخرج أبو البختريّ إليهما فوجدهما في المسجد ، فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما . فقالا : من هو ؟ قال : يقول إنه سعد بن عبادَةَ . فجاءا إليه فخلصاه من أيديهم

وقد اشتدت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين بلغها أمر هذه المبايعة ، ونالت منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى ، وجعل البلاد يشتد عليهم ، وصاروا ما بين مفتون في دينه ، ومعذب في أيدي المشركين ، وهارب في البلاد .

فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة ، فمكث أياماً لا يأذن لهم ، ثم خرج إليهم في يوم مسروراً فقال لهم :

قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب : وقد سميت بعد الهجرة إليها باسم المدينة ، وهو الاسم الذي غلب عليها بعد الإسلام .

(١١) الائتمار بالنبي عليه السلام

فلما رأت قريش الجسد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، علمت أنه لابد مهاجر إلى المدينة ، وهي في طريق تجارتها إلى الشام ، فإذا هاجر لم يقتصر خطره على دينها وحده ، بل يجاوزه إلى تجارتها التي تعتمد عليها في حياتها ، فاجتمع رؤساؤها في دار الندوة ، وهي دار قُصَيِّ بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، فتشاوروا ما يصنعون في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه .

فرفضوا هذا الرأي ، لأنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع ، لما يروونه من حلاوة منطقه ، وعدوبة لفظه .

وقال قائل منهم : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت .

فرفضوا هذا الرأي أيضاً ، لأنهم إذا حبسوه أتى أنصاره فخلصوه ، لأنهم يفضلونه على الآباء والأبناء ، وربما جر هذا من الحرب عليهم ما هم في غنى عنه .

وقال قائل منهم : بل نقتله ، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بشأره

بأخذ من كل قبيلة شاباً جليداً يجتمعون أمام داره ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم ، بل يرضون بالدية .

فأقروا على هذا الرأي ، واتفقوا على ليلة يقومون بقتله فيها على هذا الشكل ، ويتخلصون من أمره بقتله .

ولكن الله أعلم بما دبروا من ذلك ، فهاجر في الليلة التي أرادوا قتله فيها ، وأمر علي بن أبي طالب فنام على فراشه ، ليوهمهم أنه نائم فيه ، ويكون قد فاتهم إذا طلبوه ، فتمت الحيلة عليهم ، وباتوا يرددون النظر في شقوق الباب ، فلما علموا أن النائم على لا محمد سقط في أيديهم ، وخرجوا يطلبونه فلم يمكنهم اللحق به ، وكان قد هاجر هو وأبو بكر ، فسارا حتى وصلا المدينة ، وقد استقر أمره فيها ، وتبدل حاله عما كان عليه بمكة ، وكان هذا بعد ثلاث عشرة سنة من بعثته .

السياسة الخارجية قبل الهجرة

(١) بين المسلمين وقريش

سلكت قريش في هذه الفترة سياسة الخصام للدعوة الإسلامية ، ولكن الله فرق بينها في هذه السياسة ، وأوقع العصبية بينها فيها ، فقام منها بنو عبد مناف يخالفونها في إيقاع الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن منهم ، فافتصرت كل قبيلة منها على إيقاع الأذى بمن أسلم من أبنائها ، ولم تجعلها حرباً عامة للدعوة الإسلامية .

ولم ير بنو عبد مناف حرجاً في حمايتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع تمسكهم بشركهم ، كما لم ير بعض أشراف قريش حرجاً عليهم في بعض مواقف خففوا فيها من خصام قريشهم ، ومنعوا بعض أذاهم للمسلمين ، وغلبت عليهم فيها عاطفة الرحم على عاطفتهم الدينية ، لأنهم كانوا يرون أن الناس أحرار في دينهم ، وكل إنسان له دينه وعقيدته ، وليس على غيره شيء مما يدين به .

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم سياسة السلم مع قريش في هذه الفترة ، فلم يقابل الشر بمثله ، بل تحمل هو وأتباعه أذى قريش ، وصبروا على هذا صبراً جميلاً ، لأن الإسلام يعتمد في دعوته على السلم ، ولا يعتمد فيها على القوة ، بل يأخذ الناس إليها بالإقناع ، ويهديهم إليها بالدليل ، لأن القوة لا تربي عقيدة في النفس ، والإسلام

يريدها عقيدة يوافق باطنها ظاهرها ، ولا يريد لها رياء مخادعاً ،
ونفاقاً مخاتلاً .

وقد أباح الاسلام استعمال القوة في الدفاع عن دعوته ،
ولكن المسلمين كانوا في هذه الفترة ضعافاً لا يمكنهم أن يقابلوا
الشر بمثله ، بل كان هذا يضرهم ولا ينفعهم ، ويجعل قريشا تطغى
في أذاهم ، فكان من حسن السياسة في هذه الفترة أن يصبروا على
ذلك الأذى ، ويقابلوا السيئة بالحسنة ، وضبط النفس ، وكظم
الغضب ، وقد أخذ المسلمون بهذه السياسة اللينة في كرامة نفس ،
ونبل خلق ، فكانوا كراماً في ضعفهم ، أعزاء في قلة عددهم .

وقد فشلت سياسة قريش في هذه الفترة ، فلم يمكنها القضاء
على هذه الدعوة ، ولكنها وقفت بها عند حد محدود ، فلم يؤمن
إلا عدد قليل من أهل مكة ، لأن الدعوة لا بد لها من حماية تدفع
كل أذى عنها ، وقد كانت حماية بني عبد مناف لها حماية عصبية
لا دينية ، فكانت تقتصر على النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن به
من بني عبد مناف ، وكانت تدافع عنهم في حدود هذه العصبية ،
ولا يهمها شيء من أمر الدعوة التي يقومون بها ، ومثل هذه الحماية
لا يمكن أن تنهض بها دعوة ، أو تصل إلى ما تريد من الذيوع
بين الناس .

(٢) بين المسلمين والحبيشة

كان على الحبشة في هذه الفترة ملك عادل يقال له أصحمة ، وهو في العربية بمعنى عطية ، وكان محبوباً من رعيته ، لأنه تولى عليهم وكان أمرهم مضطرباً ، وحالهم محتلاً ، فأصلح ما اضطرب من أمورهم ، وحكم بينهم بالعدل ، فأحبوه وأخلصوا في طاعته ، وكانوا يسيئون بالنصرانية ، وهي أقرب إلى الإسلام مما كان عليه قريش من عبادة الأصنام .

فلما اشتد أذى قريش على المسلمين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى هذا الملك العادل ، فهاجر إليه كثير منهم ، فأكرم وفادتهم ، وأحسن جوارهم ، وبَدَّلَ خوفهم أمناً ، وضيقهم سعة ، وشقاهم سعادة ، وقد عرف ما لقوه من عبادة الأصنام ، فألمه ما لقوه منهم ، لأن النصرانية ترفض عبادة الأصنام مثلهم .

وقد غاظ قريشا ما لقي المسلمون في الحبشة من حسن الجوار ، فأرسلت إلى النجاشي رجلين من أبرع رجالها في السياسة والدهاء ، وهما عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، ليعملا على إفساد ذلك الملك على من لجأ إليه من المسلمين ، وقد أرسلت إليه معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الادم ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا بطريقاً من بطارقتة إلا أهدوا

له هدية ^(١) ثم قالوا لها : إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي^٢ فيهم ^(٢) ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

فخرج عمرو بن العاص وعبيد الله بن أبي ربيعة من مكة إلى الحبشة ، فلم يتركا بطريقاً من البطارقة إلا دفعاً إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم .

فقال البطارقة لهما : نعم

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلهما منهما ، ثم كلماه فقالا له مثل ما قالا لبطارقتة ، وكانوا حاضرين في مجلسه ، فقالوا : صدقاً أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي غضباً شديداً ، ثم قال لهم : لا والله لا أكيد

(١) البطارقة الوزراء

(٢) النجاشي لقب لكل من ملك الحبشة

قوماً جاوروني واختاروني على من سواي ، حتى أعلم على أي شيء هم .

ثم أرسل إليهم من يأتي بهم ، فلما جاءهم الرسول اجتمعوا وقال بعضهم لبعض : ما الذي تقولون للملك ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : أنا خطيبكم اليوم ، ولا نقول إلا ما علمناه ، ويكون في ذلك ما يكون .

وكان الملك قد دعا أساقفته قبل أن يأتوا إليه ^(١) ليسمعوا ما يجري بينه وبينهم في أمر دينهم ، فذشروا مصاحفهم وأناجيلهم ، فلما أتى جعفر وإخوانه من المسلمين قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل .

فقام جعفر فقال : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء

(١) الأساقفة جمع أسقف ، وهو العالم في النصرانية

الآمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم
والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ،
وقذف المحصنة ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا
به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة
الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من
الحبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين
ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجبنا في
جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي لجعفر : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقال جعفر : نعم

فقال النجاشي : فاقرأه على .

فقرأ جعفر صدر آ من سورة (كهيعص) وفيه قصة زكريا

ومريم ، فبكي النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى

اخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من

مشكاة واحدة ^(١) ثم قال لعمر و بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة :

انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ، ولا يكادون

نخرج عمرو هو وصاحبه ، وعمرو لا يغلب بمثل هذه السهولة ،

(١) المشكاة الثقب الذي يوضع فيه القليل والمصباح

فقال لصاحبه : والله لا آتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضرهم ،
فقال له عبد الله وكان أتقى منه فيهم : لا تفعل ، فإن لهم أرحاما ،
وإن كانوا قد خالفونا . فقال عمرو . والله لا أخبرنه أنهم يزعمون
أن عيسى ابن مريم عبد

ثم غدا عمرو على الملك من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم
يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم فسلمهم عما
يقولون فيه

فأرسل النجاشي إلى جعفر وإخوانه ، ليسألهم عما يقولون في
عيسى ابن مريم ، فلم ينزل بهم مثلها قط ، وقد اجتمعوا يتشاورون
ما يقولون فيه إذا سألهم عنه ، فأجمعوا أن يقولوا ما قال الله فيه كائناً
في ذلك ما هو كائن

فلما دخلوا على النجاشي قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟
فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم :
هو عبد الله ورسوله وروحه وكنيته ألقاها إلى مريم العذراء البتول
فلما سمع النجاشي هذا منه ضرب بيده إلى الأرض فأخذ منها
عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ،
اذهبوا فأنتم سيوم^(١) من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دبراً^(٢)
من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم

ثم أمر أن تردّ هداياه إلى عمرو وعبد الله ، وأخبرهما بأنه لا حاجة له بها ، فرجعا بها إلى قومهما ، ولم ينالا ما أرادا من مهاجري الحبشة

واسكن بطارقة النجاشي لم يوافقوه على ما فعل معهما بعد رجوعهما ، ورأوا فيما أجاب به جعفر عن عيسى ابن مريم غير رأيه ، فأذاعوا بين أهل الحبشة أنه قد خرج عن النصرانية ، فاجتمع أهلها عنده وقالوا له : إنك قد فارقت ديننا . ثم خرجوا عليه ، وأقاموا ثورة منكرة في بلاد الحبشة

فأرسل النجاشي إلى جعفر وإخوانه ، وهياً لهم سفناً ، ثم قال لهم فيما بينهم وبينه : إركبوا في هذه السفن ، وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا حتى تلمحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ثم عمد النجاشي إلى صحيفة فكتب فيها أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكنيته ألقاها إلى مريم . ثم جعل هذه الصحيفة في قبائه عند منكبه الأيمن ، وأخفاها عن قومه ، ثم خرج إليهم وقال لهم : يا معشر الحبشة ، ألسن أحق الناس بكم ؟

قالوا : نعم

فقال لهم : فكيف رأيتم سيرتي ؟

قالوا : خير سيرة .

فقال لهم : فما بالكم ؟

قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت أن عيسى عبد

فقال لهم : فما تقولون أنتم في عيسى ؟

قالوا : نقول هو ابن الله

فقال لهم — وقد وضع يده على موضع الصحيفة — : إنه

يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئاً . وإنما يشير إلى ما في
الصحيفة ، وهم لا يطلعون شيئاً من أمرها .

فرضوا بقوله ، ورجعوا عن ثورتهم ، فرجع جعفر وإخوانه
إلى ما كانوا عليه ، وتساهل القوم في أمرهم ، فأقاموا بالحبشة
آمنين مطمئنين ، ورضوا بعيشتهم فيها ونعموا بها ، وقالوا في ذلك
شعراً كثيراً ، فلهذا قول عبد الله بن الحارث السهمي :

يارا كبا بلّغا عني مغلغلة^(١) من كان يرجو بلاغ الله والدين^(١)
كل امرئ من عبادة الله مضطهد بيمان مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الدل والخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزى في المات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا قول النبي وعالوا في الموازين
فاجعل عنا بك في القوم الذين بغوا وعائد بك أن يعاوا فيبلغوني
وكانت الحبشة بهذا أول من مدّ يده من الأمم إلى مصافاة

(١) المغلغلة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد .

المسلمين ، ففتحت بلادها لهم « ولم تسمع لقريش في مخاصمتهم »
ورضيت منهم ما يشاركونها فيه من رفض عبادة الأصنام ، ولم
يسمح لها دينها أن تسلم فيهم لمن يعبدونها من أعدائهم .

وقد كان الإسلام لا يزال ديناً ناشئاً ، ولم تكن السياسة قد
أفسدت فيما بينه وبين أهل النصرانية ، فأكرم نصارى الحبشة
أهله في هذه الفترة ، وآثروا مصافاة أهله على مصافاة أعدائهم من
مشركي قريش ، كما أثر الإسلام في هذه الفترة مصافاة النصرانية
أيضاً ، لا في الحبشة وحدها ، بل في سائر بلادها ، فحزن المسلمون
فيها حين انتصر الفرس على الروم في الشام ، لأن الروم أهل كتاب
مثلهم ، وقد نزل في هذا قوله تعالى في أول سورة الروم (ألم ،
غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيُغْلِبُونَ ، فِي بضع سنينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ
وَيَوْمَئِذٍ يفرحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنُصْرَةِ اللَّهِ يُنْصِرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

السياسة الداخلية من الهجرة إلى غزوة بدر

(١) بين المهاجرين والأنصار

يطلق اسم المهاجرين على الأصحاب الذين هاجروا إلى المدينة قبل فتح مكة، ويطلق اسم الأنصار على الأوس والخزرج من أهل المدينة، لما كان من نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد اختير هذا الاسم لهم بعد الإسلام ليجمع بينهم، ويقضى على ما كان بينهم من عدااء في جاهليتهم.

وقد مضى المهاجرون والأنصار في هذه الفترة على المعاهدة التي عقدوها في بيعة العقبة الثانية، وكانت توجب على الأنصار الدفاع عن المهاجرين، ولا توجب عليهم أن يشاركوهم في الهجوم على قومهم، وقد وفى النبي صلى الله عليه وسلم لهم بهذا الشرط في هذه الفترة، فلم يشركهم فيما قام به المهاجرون من الهجوم على قوافل قريش، وتركهم على ذلك إلى غزوة بدر، وكانت في السنة الثانية من الهجرة، حتى يتمكن الإسلام من قلوبهم، ويتم الاتحاد والامتزاج بينهم وبين المهاجرين، وتنتهي نفوسهم لمشاركتهم في الهجوم على أعدائهم.

وقد كان الأوس والخزرج في جاهليتهم أنظمة خاصة بهم،

وإمارات تقوم بتدبير شؤونهم ، وقد دخل الإسلام عليهم وهم ينظمون الشجران ليتوجروا عليهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فأبطل ما كانوا يريدونه من ذلك ، لأن أمورهم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنظمتهم صارت خاضعة لأنظمة الإسلام ، فتغيرت نفوس بعضهم ، ودخلها شيء من الريبة والحسد ، فكان من الحكمة في السياسة أن يكتفى بما بذلوه من أنفسهم في معاهدة العقبة ، والآن يكملوا بأكثر منه حتى تستقر أمورهم ، وتآلف هذا النظام الجديد نفوسهم .

وكان مما عمله النبي صلى الله عليه وسلم في تهيتهم لذلك أن آخى بينهم وبين المهاجرين ، فأخى بينهم في الله أقوى أخوة ، وربط بينهم في الدين أقوى رابطة ، لينسوا بهذا قرابة من تخلف منهم ، ويؤثروا أخوة المهاجرين على قرابتهم ، فأخى بين أبي بكر وخارجة ابن زيد ، وأخى بين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك ، وأخى بين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ ، وأخى بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع ، وأخى بين الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة ، وأخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وأخى بين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك ، وأخى بين سعيد ابن زيد وأبي بن كعب ، وأخى بين مصعب بن عمير وأبي أيوب ، وأخى بين أبي حذيفة بن عتبة وعبيد بن بشر ، وأخى

بين عَمَّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ، وآخى بين أبي ذرٍّ والمنذر بن عمرو ، وآخى بين حاطب بن أبي بلتعة وعُويم بن ساعدة ، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ، وآخى بين بلال بن رباح وأبي رُوَيْحَة .

وهكذا آخى بين سائر المهاجرين والأنصار ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة أقوى من أخوة النسب ، وكانت أخوة على المواساة والحق ، وإيثار رابطة الإسلام على غيرها من الروابط ، فقطعت رابطة الأنصار بمن بقي منهم على الشرك ، ونسوا بها ماضيهم في الفرقة والإنقسام ، ولم ينظروا إلا إلى حاضرهم في ذلك الإخاء الصادق ، وتلك الرابطة الكريمة .

وقد بلغ من أمر هذه الأخوة أنهم كانوا يتوارثون بها بعد الموت ، ولم يكن لرابطة القرابة معها حظ من الإرث ، وقد مكثوا يتوارثون بها إلى أن نزلت الآية الأخيرة من سورة الأنفال (والذين آمنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

(٢) بين المسلمين واليهود

نزل كثير من اليهود بـيـثـرِب وما حوالىها بعد أن أجالهم الروم من بلادهم بفلسطين ، فاتخذوا منها وطناً لهم بين أهلها من العرب ، واتخذوا التجارة والصناعة والزراعة حرفة لهم ، حتى ظهروا على العرب بأموالهم ، ثم عاملوهم بالربا الفاحش حتى ابتزوا كثيراً من أرضهم ، فصارت لهم بهذه البلاد قوة ومنعة ، وصارت لهم بها حصون وآطام كثيرة ، وصارت لهم بها قبائل وافرة العدد ، كبنى النضير ، وبنى قيسنقاع ، وبنى قريظة .

ولما طال العهد عليهم فى هذه البلاد وانغمسوا فى جاهليتها ، واشتركوا فى حروبها ، وانقسموا على أنفسهم فيها ، فقد كان بين الأوس والخزرج حروب فى جاهليتهم ، فدخل بنو قريظة فى حلف الأوس ، ودخل بنو النضير وبنى قيسنقاع فى حلف الخزرج ، وقاتل اليهود بعضهم بعضاً فى هذه الحروب ، ونسوا ما بينهم من رابطة الدين ، وما أخذ عليهم فيها من عهود ومواثيق ، إلا قليلاً منها كانوا يأخذون به ، ومن ذلك أنهم كانوا إذا أسر رجل من فريق اليهود فى قتالهم يجمعون له ما يفدونه به ، فإذا عابت العرب ذلك عليهم وقالت لهم : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم ؟ قالوا لهم : إنا أمرنا أن نفديهم . فإذا قالت العرب لهم : كيف تقاتلونهم ؟

يقولون : إنا نستحي أن نذل حلفاءنا ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما وقعوا فيه من تلك الآثام في الآيتين — ٨٤ ، ٨٥ — من سورة البقرة (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) .

ولكن اليهود مع هذا لم يكونوا يخلصون في معاملاتهم ، ولم ينفسهم ما لقوه من حسن الجوار في وطنهم جشعهم وحرصهم ، ولم يخلع من نفوسهم أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا حرج عليهم في غيرهم من الشعوب ، فكانوا يرون أنهم لا حرج عليهم في أمر مواطنيهم من العرب ، وأنه لا شيء عليهم في أكل أموالهم ، وقد أشار القرآن إلى هذا في الآية — ٧٥ من سورة آل عمران (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

فأهل الكتاب هم اليهود ، والأمميون هم العرب ، وكان
مُسولوا اليهود يقرضونهم بالربا الفاحش ، ويستحلّون أكل
أموالهم .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أراد أن يجعل
منها وطناً واحداً للعرب واليهود ، وأن يجعل من الفريقين أمة
واحدة تجمعها جامعة الوطن ، ولا يفرق بينها اختلافها في الدين ،
فيزول ما كان بينهم من شرور وآثام ، وتبطل حروبهم ومنازعاتهم ،
ويرفرف علم الإخاء بينهم جميعاً ، فلا ينظر العرب إلا إلى هذا الوطن ،
وينسون فيه أنهم عرب ، ولا ينظر اليهود إلا إلى هذا الوطن ،
وينسون فيه أنهم يهود ، وكذلك ينظر كل قبيل من العرب
كل المهاجرين والأوس والخزرج ، وكل قبيل من اليهود كبنى النضير
وبنى قينقاع وبنى قريظة ، ولا شك أنه بهذا يكون الإسلام أول
من أتى بهذا الأصل العظيم — الدين لله ، والوطن للناس .

فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ما كان بين أهل المدينة قبل
الإسلام من المعاهدات المفرقة للظلمة ، وعقد بينهم معاهدة تحقق تلك
الأغراض التي أرادها لهم ، وتجعلهم أمة واحدة على أعدائهم ،
وكتب بها كتابين المهاجرين والأنصار واليهود ، وادع فيه اليهود
وعاهدتهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وهو هذا الكتاب :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاملون بينهم^(١) وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين^(٢) وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى^(٣) وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين — ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى النجار وبنى عمر بن عوف وبنى النسييت — إلى أن قال : وإن المؤمنين لا يتركون مفسر^(٤) حائ^(٤) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم^(٥) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كفرا على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يحير عليهم أديانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي

(١) أى على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدياء .

(٢) المائى الأسير

(٣) المعاقل الديات

(٤) مثقلا بالدين والعيال

(٥) الدسيعة العطية

بعض دون الناس ، وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة^(١) غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء^(٢) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط^(٣) مؤمناً قتلاً عن بيعة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه^(٤) وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذه منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ورسوله ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم والمسلمين دينهم ، مواليهم ، وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه

(١) المساواة في المعاملة

(٢) غنى أن بعضهم أولياء بعض في ذلك

(٣) اعتبطه قتله من غير شيء يوجب قتله

(٤) المحدث الجانى

لا يوتغ (١) إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جُشَم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة ولجفنة وابن الشَّطِيبَة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن موالى ثعلبة كأَنفسهم ، وإن بطانة يهود كأَنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد — صلى الله عليه وسلم — وإنه لا يتحجر على ثأر جرح (١) وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للظالم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قریش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه

(١) لا يهلك

(٢) أى لا ياتهم جرح على ثأر

ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولقد فتحت هذه المعاهدة فتحاً جديداً في السياسة الدينية ، فأقرت حرية العقيدة ، وحرية الرأي ، وحرمة الوطن ، وحرمة الحياة ، وحرمة النفس ، وحرمة المال ، ولم يحدث مثل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان ، بل كان هناك الاضطهاد والظلم ، والتفرقة في الحقوق ، والتفاوت بين الأفراد والطبقات

فهل أخلص اليهود لهذه المعاهدة العادلة ، أو أبرموها ليتخذوها المسلمين ، ويدبروا في السر ما يفسدون به أمرهم ، وقد عاشوا بين العرب في الجاهلية ما عاشوا بينهم ، ولقوا من حسن جوارهم ما لم يلقوه من غيرهم ، فلم ينسبهم هذا أنهم يهود وهم عرب ، وأنه لا سبيل عليهم فيهم ، فكيف يخلصون لهم وقد صاروا إلى دين جديد ينهض بهم ؟ ويضيع عليهم ما كانوا يربكونه من غفلتهم ، وكيف يسمون إلى هذه السياسة التي تسمو على الفوارق الجنسية ؟ وهم

لا يعرفون إلا جنسهم ودينهم وما عداهما لا قيمة له عندهم ، ولا يصح أن يتساوى وإياهم ، وقد جبأوا من الجشع ، وخلقوا من الطمع ، فلا يهمهم إلا أمر المادة ، ولا يهمهم أمر الروح وفضائلها . فأخذ اليهود يجتهدون في إفساد ما بين مسلمي أهل المدينة ، ليفرقوا كلمتهم ، ويعود إلى ما كانوا عليه في جاهليتهم ، يعبدون الأصنام ، ويحارب بعضهم بعضا ، وعبادة الأصنام أهون عند أولئك اليهود الجشعين من أن يشاركهم أبناء هذا الوطن في خيراته لأنهم لا يهمهم أمر الدين بقدر ما يهمهم أمر المال ، وتاريخهم ينطق بأنهم يريدون أن يختصوا بدين التوحيد ، فلا يهمهم أمر عبادة الأصنام من غيرهم

وقد مر شاس بن قيس اليهودي على نفر من الأوس والخزرج بعد إسلامهم ، وقد جمعهم مجلس واحد يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصالح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائكة قبلة بهذه البلاد ^(١) لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملائكة بهم من قرار . فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه ، فقال : إني أريد أن أجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبلة ^(٢) وأنشدتهم بعض ما كانوا

(١) قبلة أم الأوس والخزرج

(٢) يوم بعثت من أيام الحروب بين الأوس والخزرج

تقاولوا فيه من الأشعار . ففعل الفتي ما أمره به شاس ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب (أوس بن قيطي الأوسى وجبار بن صخر الخزرجي) فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة . وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة (٣) السلاح السلاح . ثم خرجوا إلى تلك الحرة .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلوه ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، فلما وصل إليهم قال لهم : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، وغلبت سياسة الألفة سياسة التفريق التي لجأ إليها اليهود

وحينئذ أدرك اليهود أن سياسة الإسلام أقوى من سياستهم ، وأن رابطته أقوى من أن يؤثر فيها مثل ما لجأ إليه شاس بن قيس ، فعمدوا إلى وسيلة أخرى يصابون بها إلى غايتهم ، وهي تشكيك

المسلمين في دينهم، فكانوا يتعنتون النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال،
ويأتونه باللبس، ليُلبِسوا الحق بالباطل، ويوقعوا في نفوس
المسلمين الشك في أمره، ومن كان يفعل هذا من رؤسائهم ^{مُحَيٍّ}
بن أخطب من بني النضير، وعبد الله بن صوري من بني ثعلبة،
وزيد ابن اللُصيت من بني قَيْسِ بْنِ قَعْق، والزُّبير بن باطا من بني
قريظة، وأبيد بن أعصم من بني زُرَيْق، وكان القرآن ينزل فيهم
وفيما يسألون عنه.

ومن ذلك أن بعضهم قال: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن
سليمان بن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً، وقد أنزل الله
في قولهم هذا (وما كفر سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا)
الآية — ١٢ — من سورة البقرة.

ومن ذلك أنه لما صرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة
على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة أتى رفاعه بن قيس وغيره
من أحبار اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: يا محمد، ما
ولاك عن قبلةك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم،
إرجع إلى قبلةك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك. وكانوا يريدون
بهذا فتنة المسلمين، لأنهم لم يؤمنوا به حين كان يتجه إلى بيت المقدس،
فأنزل الله تعالى فيهم (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن
قبلةهم التي كانوا عليها) الآيات — ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥،
١٤٦، ١٤٧ — من سورة البقرة.

ومن ذلك أن بن صاوبا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ،
ما جئتكم بشيء نعرفه . وما أنزل الله عليكم من آية بيّنة فنتبعك لها ،
فأنزل الله تعالى في قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر
بها إلا الفاسقون) الآية — ٩٩ — من سورة البقرة .

ومن ذلك أن ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ضلت ، فقال زيد
ابن اللّصّيت يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدرى أين
ناقته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن قائلًا قال أيزعم محمد أنه
يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني
الله ، وقد دلتني الله عليها ، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة
بن مامها ، فذهب رجال المسلمين فوجدوها كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم وكما وصف .

وقد أنزل الله تعالى فيما كان من اليهود والمنسافقين من ذلك
وغیره ، صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، فذكر فيها ما كان من
محاولتهم دفع الناس عنه بالباطل ، وذكرهم بنعم الله عليهم وتفضيله
لهم على العالمين ، وذكر ما كان منهم بعد هذا من الكفر بنعمته ،
وتحريف دينه ، وانغراسهم في تلك الجاهلية الآثمة ، حتى إنه لم يبق
لهم من دينهم إلا اسمه ، وإلا أمانى باطلة لا أساس لها ، فكان
لهم الصاع صاعين ، ودفع باطلهم بالحق الذي لا شك فيه ، وذكر
كثيراً من سوءاتهم في قديمهم وحديثهم ، ولحق صولته التي

لا تدفع ، وسلاحه الذى لا يقاوم ، فرد بهذا كيدهم فى نحورهم ، وجعلهم يرتمون فى أحضان من بقى على شركه من أهل المدينة ، وكان أكثرهم منافقين لا يظهرون بشركهم ، فاتفقوا هم واليهود على أن يبقوا فى السر على ما كان بينهم من حلف قبل الإسلام ، ولا يخلصوا لذلك الحلف الجديد الذى عقده هم والمسلمون .

وقد جنى اليهود بذلك على أنفسهم ، وساروا بها فى طريق سيئتهى بهم إلى النفى من ذلك الوطن الذى لم يعرفوا حقه عليهم ، ولم يقدرُوا فيه تلك السياسة الكريمة التى تسوى بينهم وبين أبنائه ، مع أنهم غرباء فيه ، وليس لهم فيه من الحق مثل ما لأهله .

وكانت سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة ، فهى تحكى حال اليهود فى تلك الفترة ، وتصور تعنتهم على أهل ذلك الوطن تصويراً لا شك فيه .

وقد اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم فى تلك الفترة برد كيد أولئك اليهود ، وإفساد محاولاتهم التفريق بين المسلمين ، وتشكيكهم فى دين الإسلام ، وقد جرى فى هذا على السياسة التى استتبعها فى مطاولة أعدائه ، إلى أن ينقطع عندهم ، ولا يكون هناك شئ فى أخذهم بالحزم والشدّة ، ويكونوا هم الذين جنوا على أنفسهم .

٣ — بين المسلمين والمنافقين

المنافقون قوم من الأوس والخزرج أخفوا الكفر وأظهروا

الإسلام ، وكان بينهم قليل من اليهود ، ورئيسهم جميعاً عبد الله بن أبي بن سلول من بني عوف ، ثم أحد بني الحُبلى ، وكان سيد أهل المدينة ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين — حتى جاء الإسلام — غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، وقد جامهم الإسلام وهم على هذا ، فانصرفوا عنه ، وتركوا التفكير فيه ، لأن أمورهم صارت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فضغن عبد الله بن أبي هذا على الإسلام ، ورأى أنه قد استلبه ملكا ، وانضم إليه قوم من الأوس والخزرج ، بمن كان عسا على جاهليته^(١) ولكنهم رأوا أن يظهروا الإسلام بحجارة لجمهور قومهم ، وليكنهم أن يسعوا بالفساد بينهم في أمان منهم ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، وما إلى هذا من كفرهم .

وقد ذكر ابن إسحاق أنهم اتخذوا إسلامهم جُنة من القتل ، وهذا خطأ ظاهر ، لأن الأوس والخزرج أسسوا طائعين ، ولم يقهرهم أحد على الإسلام ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم وهو لاجئ إلى حمايتهم في حال تمسكه من قهرهم على الإيمان به ، على أن

(١) عسا على جاهليته بقى عليها واشتد في الأخذ بها .

الاسلام كما سبق لا يقبل وسيلة القهر في الدعوة ، لأن الإيمان الذي يحصل بالقهر لا يقبل من صاحبه ، وإنما يقبل منه الإيمان الصادق ، والاعتقاد الصحيح ، على أنا إذا رجعنا إلى المعاهدة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بين أهل المدينة نجد فيها هذا النص (وإنه لا يجوز مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن) وهذا صريح في أنها كانت تشمل من بقى ظاهراً على شركه من أهل المدينة ، وفي أنها كانت تعترف بوجودهم فيها ، وبأن لهم ما للمسلمين واليهود من أهلها ، وبأن عليهم ما عليهم ، فلم يكن هناك قهر على الاسلام ، ولم يكن هناك ما يحمل على النفاق من خوف القتل .

وإنما النفاق طبيعة في بعض بني الإنسان ، يحملهم عليه ضعف النفس ، والاستهتار بشأن الدين ، كما حكى الله تعالى عنهم في الآية — ١٤ — من سورة البقرة (وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ) . وقد أخذهم النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً بما جرى عليه في سياسته ، من مطاولة خصومه ، والصبر على خصومتهم إلى أن يقطع عذرهم ، وهم يزيدون على غيرهم بقرابتهم لمن أخلص في إسلامه من الأوس والخزرج ، فراعى فيهم تلك القرابة ، وراعى فيهم من آواه وأكرمه من أهلهم ، وإنه لمن حسن السياسة وكمال المروءة أن يحتمل من أجلهم نفاق أقربائهم ، وأن يقابل ضعف النفاق

بالإحتقار والازدراء ، لأنه من الهوان بحيث لا يستحق أن يهتم به ، أو يقابل بأكثر من الاحتياط في أمره ، والتيقظ لما يدبره في السر ، حتى لا يؤخذ المسلمون بما يدبره من المفاسد .

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم يوما أن يعود سعد بن عبادة من شكوا أصابه ، فركب على حمار عليه إكاف^(١) فوقه قطيفة فدية مختطمة بحبل من ليف ، فمر بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطعمه^(٢) مزاحم^(٣) وحوله رجال من قومه ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم تذم من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ودعا إلى الله عز وجل وذكر به وحذر وبشر وأنذر ، وعبد الله زام^(٤) لا يتكلم^(٥) فلما فرغ من مقالته قال : يا هذا ، إنه لا أحسن عن حديثك هذا ، إن كان حقا فاجلس في بيتك ، فمن جاءك لفسخ^(٦) ثيابه ، ومن لم يأتك فلا تغشسه به ، ولا تأتته في مجلسه بما يكره منه .

فرد عبد الله بن ربيعة في رجال كانوا عند عبد الله بن أبي من المسلمين ما سمعوه منه ، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : بلى فاعششنا به ، واثنتنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، وما أكرمنا الله به وهدانا له .

(١) برذعة .

(٢) الأطعم الحصن ، ومزاحم اسم أطعم عبد الله .

(٣) الزام الساكت .

فقال عبد الله بن أبي حنٍ ردُّوا عليه :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل

تذل ويصرُّ عليك الذين تُصارع

وهل ينهض البازي بغير جناحيه

وإن جُذئ يوماً ريشه فَهَوَ واقع

فقام النبي صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة ، وفي

وجهه ما قال عبد الله بن أبي ، فقال سعد : والله يا رسول الله إني

لأرى في وجهك شيئاً ، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه . فقال له :

أجل ، ثم أخبره بما قال عبد الله بن أبي ، فقال سعد : يا رسول الله ،

أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لننوّجه ،

وإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً .

وهذا الخبر قاطع في أن عبد الله بن أبي وإخوانه من المنافقين لم

يكونوا يخافون القتل ، وإنما كانوا يتجنّون على النبي صلى الله عليه

وسلم ، فكان يطاولهم ويصبر عليهم ويرفق به ، ولما كان يذم

النفاق والمنافقين من غير أن يصرح بأسمائهم ، وقد ورد في سورة

البقرة آيات كثيرة في ذمهم ، وقد سبق أن سورة البقرة نزلت

في تلك الفترة .

فكان موقف المنافقين من المسلمين في تلك الفترة مثل موقف

اليهود منهم ، فلم يخاضعوا لفریقان للمعاهدة الجديدة التي عقدها المسلمون

معههم ، بل أخلصوا لمعاهداتهم القديمة ، وكانوا في سرهم مع قريش على المسلمين ، يتجسسون لقريش عليهم ، ويطلعون عليها على أخبارهم ، ويتمنون نصرها عليهم ، ويضمرون لهم من الحقد ما يضمرون ، ويكنشون لهم من البغض ما يكنشون ، ويعملون في الخفاء ما لا تعمله قريش في الجهر .

ولهذا كان ضررهم على الإسلام أشد من ضرر قريش ، لأن عداوة قريش كانت عداوة ظاهرة يعرف ما تاتها ، ويمكن اتقاؤها ، وعداوة هؤلاء كانت عداوة خفية توقع في العنت والخرج ، وتتطلب سياسة حكيمة يقظة تتغلب عليها بالحكمة واليقظة ، وتفسد محاولاتها الخفية أولا بأول ، حتى ترد كيدها في نحرها ، وتورطها في آثامها إلى أن تجاوز الحد ، فتؤخذ بشر ما جنت ، وينقلب كيدها وبالا عليها .

السياسة الخارجية من الهجرة إلى غزوة بدر

١ - بين المسلمين وقريش

مكث النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة يقابل عداء قريش بالصفح ، وكان أصحابه يأتونه بمكة ما بين مضروب ومشجوج ، فيقول لهم : إصبروا ، فإنني لم أؤمر بقتالهم . وقال له جماعة من أصحابه ، منهم عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون وسعد بن أبي وقاص : يا رسول الله ، كنا في عزٍّ ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فائذن لنا في قتال هؤلاء . فقال لهم : كفثوا أيديكم عنهم ، فإنني لم أؤمر بقتالهم .

فلما هاجر من بلدهم إلى المدينة تابعوه العداء ، فبعثوا إلى أهل المدينة يهددونهم بالحرب إن لم يخرجوه من بلدهم ، وقد أرسلوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين : إنكم آويتم صاحبنا ، وإننا نقسم بالله لتقاتلنَّه أو لتخرجنَّه أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم .

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أرسلت إليه هذا ذهب إليه ، فلم يجبها إل ما طلبت منه ، لأنه لم يكن يملك من أمر قومه شيئاً ، وكان ضعيفاً لا يقدر على مخالفتهم .

فأخذت قريش تشدد الأذى على من قعد به الضعف عن
الهجرة من مكة من المسلمين ، وأعلنت العداء لأهل المدينة منهم ،
وقد ذهب سعد بن معاذ إلى مكة للعمرة ، فنزل على أمية بن
خلف ، ثم ذهب معه إلى الكعبة ليطوف بها ، فلقيه أبو جهل فقال
له : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد أويتم الصُّبابة ، أما والله لو لا
أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً . فقال له سعد
ورفع صوته : أما والله لئن منعني هذا لأمنعَنَّك ما هو أشد عليك
منه ، طريقك على المدينة . يعني طريق تجارة الشام ، فقال له أمية :
لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحَكَم سيد الوادي .

فقابل النبي صلى الله عليه وسلم عداء قريش بمثله ، وأذن الله
له في قتالها لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر صفر في السنة الثانية
من الهجرة ، وقد نزلت في ذلك آيات من القرآن ذكرت فيها
الأسباب التي دعت إلى الإذن في القتال ، ومن ذلك قوله تعالى في
الآيات — ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ — من سورة الحج (أذن للذين
يُقَاتِلُونَ بأنهم ظالمُوا وإنَّ الله على نصرهم لقدير ، الذين
أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ
وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ
مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا
عن المنكر ولله عاقبة الأمور .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في الآيتين — ٧٤ ، ٧٥ — من
سورة النساء (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة
الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب
فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون
ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من
لادُنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) .

فهذه الآيات تتضمن ما يأتي من أسباب الإذن في القتال :

١ — أن المسلمين قوتلوا من قريش ، ومن حق من قوتل أن
يدافع عن نفسه بالقتال .

٢ — أن قريشاً ظلمت المسلمين أثناء إقامتهم بمكة ، ومن حق
المظلوم أن ينتقم من الظالم عند قدرته عليه .

٣ — أن قريشاً أخرجتهم من ديارهم بغير حق ، لأنه لا ذنب
لهم إلا أنهم آمنوا بالله ودعوا إلى الإيمان به ، وهذا ليس بذنب ،
لأن من حق كل إنسان أن يدين بما يشاء ، وأن يدعو إلى ما يراه
حقاً ، وقد أقرت جميع الشرائع العادلة حرية الدعوة والاعتقاد ،

لأن في هذا صلاح العالم ، وفتح الطريق لهوضه بالأفكار الصالحة ،
والآراء الصحيحة .

٤ — أن الدفاع عن النفس بالقتال حق مقرر لا يمكن النزاع
فيه ، ولولا تسليط الله المؤمنين على الكافرين بالجهاد لاستولوا
عليهم ، وهدموا أمكنة عبادتهم ، فلم يتركوا للنصارى يسعاً ، ولا
لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد ،
وليس بعد هذا إلا أن تدول دولة الإيمان ، وتستقر عبادة
الأوثان والأصنام .

٥ — أن المسلمين إذا مكَّن لهم في الأرض بالقتال قاموا
بصلاحها ، وأظهروا العمران فيها ، وأحسنوا إلى الطبقات الفقيرة ،
وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ومن حق الأصلح أن
ينصر على من يناهضه في إصلاحه ، وأن يظهر على أهل الفساد
في الأرض .

٦ — أن قریشاً لم تقلع عن ظلمها بعد إخراجها المسلمين من
ديارها ، بل استمرت في ظلمها لمن قعد به الضعف في مكة ، من
الرجال والنساء والولدان ، فشعثتهم من الهجرة إلى إخوانهم بالمدينة ،
وعذبتهم بالسجن وغيره من صنوف العذاب ه فمن حق المسلمين
أن يحاربوا في سبيل خلاص أولئك المظلومين ، لينهوا ذلك الظلم
والبغي عنهم ، ويمكنوهم من الهجرة إليهم .

وقد استولت قريش على أموال المسلمين بمكة بعد أن أخرجوهم منها ، ولم يمكنوا أحدا منهم أن يأخذ معه شيئا من ماله ، اللهم إلا عثمان بن عفان ، فإنه تمكن من أخذ جميع أمواله معه ، فبدأ المسلمون حرب قريش بالتعرض لقوافلها التي تمر على المدينة بتجاريتها إلى الشام ، ليستولوا على أموالها كما استولت على أموالهم ، على أن الحرب تستباح فيها النفوس ، فتستباح فيها الأموال من باب أولى ، لتكون تعويضا لما يضيع فيها من الأموال ، فلا يؤخذ على الحرب شيء من ذلك ، إذا كانت حرباً مشروعة لم يقصد منها الاعتداء على الناس في أنفسهم وأموالهم ، وإنما يقصد منها الدفاع عن النفس .

والحرب في الإسلام حرب مشروعة لا يقصد منها الاعتداء على النفس أو المال ، وإنما يقصد منها الدفاع عنهما ، لأن الإسلام إنما أذن في قتال من قاتلنا ، وقد حرم الاعتداء على من لم يقاتلنا ، كما قال تعالى في الآية — ١٩٥ — من سورة البقرة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وكذلك أذن من يقاتل في سبيل المال ، فقال تعالى في الآيتين — ٦٧ و ٦٨ — من سورة الأنفال (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم

فبما أخذتم عذاباً عظيماً) وكانوا في غزوة بدر قد عمدوا إلى أسر المشركين دون قتالهم طمعاً في الفداء ، وقد جاء في سنن أبي داود أن من حارب للغنائم لا أجر له ، وإنما كان المسلمون يأخذون الغنائم بعد الحرب ، ليعوضوا بها ماضع منهم فيها ، وكان أكثرها ينفق في مصالحهم العامة ، ولا يأخذ منها الأفراد إلا بقواعد محدودة ، وأحكام تسرى عليهم جميعاً .

وقد قامت حروب في هذه الفترة (١) . كان أولها سرية حمزة بن عبد المطلب ، وآخرها سرية عبد الله بن جحش ، وقد سار بها إلى بطن نخلة ، فترصد بها عيرا لقريش ، فمرت عليه في آخر يوم من رجب ، فخار بها حتى استولى عليها ، وكانت العرب تحرّم القتال في رجب لأنه من الأشهر الحرم ، وقد حرّم الإسلام من ذلك ما حرّمه ، لأنه دين يدعو إلى السلام ، وتحريم القتال في تلك الأشهر مظهر من مظاهره ، فلا يسعه إلا أن يقره ، ويحرم القتال فيه كما حرّمته العرب من قبله .

فلما قدم عبد الله بن جحش المدينة ، وشاع أنه قاتل في الأشهر الحرم ، عذّفه المسلمون هو وأصحابه على قتاله فيها ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم . فندم

(١) كانت هذه الحروب بين المهاجرين وقريش ، ولم يشترك فيها الأنصار ، لأن قريشا لم تهاجم فيها المدينة حتى يشتركوا في حربها

عبد الله وأصحابه على قتالهم فيها ، وأخذت قريش تعيب على المسلمين انتهاكهم لحرمه هذه الأشهر ، فأنزل الله في هذا الآية — ٣١٧ — من سورة البقرة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) الآية ، فوافق المشركين على حرمة القتال في هذه الأشهر ، ولكنه رد عليهم بأنهم لا يصح لهم أن يشنعوا على المسلمين بما وقع منهم من خطأ ، وقد فعلوا ما هو أكبر منه ، إذ أخرجوا المسلمين من المسجد الحرام ، وهو البيت الذي جعله الله أمناً للناس من عهد إبراهيم عليه السلام وإنه لمن حسن السياسة الاعتراف بذلك الخطأ.

٢ — بين المسلمين وباقي العرب

جاء في كتاب المواهب اللدنية للقسطاني وشرحها للزرقاني أن الكفار كانوا مع النبي صلى عليه وسلم بعد الهجرة على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يؤايبوا عليه عدوه ، وقيل على ألا يكونوا معه ولا عليه ، وقيل على أن ينصروه ممن دهمه من عدوه ، وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قيسية قحاش من اليهود . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة ، وهم قريش . وقسم تركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره ، فإن آل إلى النصر والظفر بقريش تبعوه ، وإن كان النصر لهم تبعوهم ، وهم باقي العرب ، ولكنهم لم يكونوا في ذلك على سواء ، فإن منهم من كان يحب

ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، كبنى خزاعة ، ولهذا دخلوا في عهده في صلح الحُدَيْبِيَّة ، ومنهم من كان يجب نصر قريش . كبنى بكر ، ولهذا دخلوا في عهد قريش في ذلك الصلح ، ولا شك أن جمهور القبائل كان يود نصر قريش ، ولهذا روى الحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يديتونه إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا في السلاح .

ولسكنهم مع هذا لم يصارحوا النبي صلى الله عليه وسلم العداوة في هذه الفترة كما صارحته قريش ، فكيف عنهم ولم يقاتلهم ، لأن الإسلام كما سبق لا يقاتل إلا من قاتله ، ومن لا يقاتله لا يجوز له أن يقاتله وإن كان ضلعه مع أعدائه ، لأن الإسلام يريد أن يدعو الناس بالسلم ، فيكف عن القتال ما أمكنه ، ولا يقاتل إلا من يقاتله بالفعل . فهو يأخذ المخالفين بالتساع إلى أبعد حد ، ويجهد في إزالة الضغينة من قلوب أعدائه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا لم يرفع أحد في وجهه سيفاً لم يرفع في وجهه سيفاً ، وإن بلغ ما بلغ في عداوته ، وأضر البغض والحسد له .

على أن السياسة الحكيمة كانت مع هذا تقضى على المسلمين أن يغفروا لقبائل العرب هذه الهنات ، وأن يعضوا عن هذه العداوة منهم ، ليتفرغوا للحرب قريش وحدها ، ولا يحملوا هذه

القبائل على الانضمام إليها في حروبها ، وبهذا عملت سماحة الإسلام ومصلحة المسلمين على مسالمة قبائل العرب في هذه الفترة ، وعلى حصر حالة الحرب فيما بين المسلمين وقريش .

وقد أمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقد في هذه الفترة معاهدتين بين المسلمين وقبيلتين من قبائل العرب ، وكانت الأولى بين المسلمين وبنى ضمرة بن بكر بن عبد منساة بن كنانة ، وادعهم فيها على حسن الجوار ، وأن ينصروهم على أعدائهم وينصروه على أعدائهم ، وهذا نصها :

« هذا كتاب محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لبني ضمرة ، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء ، بشرط ألا يحاربوا في دين الله ، ما بلى بحر صوفة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله . »

وكانت المعاهدة الثانية بين المسلمين وبنى مُدَلج ، وكانوا حلفاء بني ضمرة ، فلما وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني ضمرة وادعهم بنو مدلج أيضا .

السياسة الداخلية من غزوة بدر إلى صلح الحديبية

١ — بين المهاجرين والأنصار

كانت غزوة بدر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة إلى المدينة ، وكانت الحرب في هذه المدة دائرة بين قريش والمسلمين ، وكان المهاجرون هم الذين يتولونها وحدهم دون الأنصار ، لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية من جانبهم ، فلم يشتركوا في الهجوم على القوافل التجارية لقريش ، ولم يدعمهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم في حربها ، بل حصل أن قريشا أغارت في هذه المدة على سرح المدينة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين وحدهم إلى المخيرين من قريش ، لأن المخيرين كانوا في عدد قليل ، فلم يكن هناك ما يدعو إلى خروج الأنصار .

وكانت تلك المدة كافية لحمل الأنصار على مشاركة المهاجرين في حروبهم ، لأنهم صاروا إخواناً في الدين والوطن ، وقد اطمأن كل فريق منهم إلى الآخر ، وعلم الأنصار أن المهاجرين قد فسوا وطنهم الأول ، وحاربوا أهله من قومهم وأقاربهم ، فاطمأنوا إلى مشاركتهم في حربهم ، وعلموا أن هذا الوطن سيجتمع بين الفريقين إلى ما شاء الله ، فلا يصح أن ينفرد أحدهم بحرب دون الآخر ، ولا سيما بعد أن بدأت قريش بالهجوم على سرحهم ، فمن حقهم أن يشتركوا في الهجوم على قوافلها ، لأنها لم ترع إحجامهم عن حربها مع

المهاجرين ، وهم ، إخوانهم في الدين ، ولهم عليهم حق الوطن والجوار
وقد حصل هذا الانقلاب من الأنصار في غزوة بدر ، لأن
النبي صلى الله عليه وسلم خرج فيها لطلب عير عظيمة لقريش ،
وكانت قادمة من الشام إلى مكة بأموال كثيرة ، وعلى رأسها
أبو سفيان بن حرب ، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا ، فخرج
الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصدوا معه تلك العير ،
وقد علم أبو سفيان بخروجهم إليه ، فأرسل أبو سفيان إلى قريش
يخبرها بذلك ، فخرجت بمجموع كثيرة لتمنع عيرها وتدافع عنها .
وهنا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف موقف الأنصار
من قريش ، لأن الموقف قد تبدل بعد خروجها بتلك الجموع ،
فأهمه أن يعرف موقفهم صريحا ، وأن يسجل عليهم الرضا بذلك
الانقلاب تسجيلا حاسما ، حتى يصدقوا في القتال ، ولا تحذهم
أنفسهم أثناءه بالرجوع عنه ، لأنه غير واجب عليهم ، ولم يأخذوا
على أنفسهم عهدا بالمشاركة فيه ، وهذه سياسة حكيمة حازمة ، لأن
الصراحة في هذه الأمور تؤدي إلى النجاح ، وتقضي على عوامل
الشك والتردد .

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار ليستشيرهم
في قتال قريش بعد أن خرجت بتلك الجموع ، ويعرف رأى
الأنصار خصوصا في ذلك القتال ، لأنهم خرجوا بالفعل على

المعاهدة الدفاعية التي بينهم وبين المهاجرين ، ولكن دلالة الفعل لا تكفي في أمر المعاهدات ، بل بُدِّعَ من قول صريح ينسخ تلك المعاهدة ، ويسجل على الأنصار ما أقدموا عليه من مشاركتهم المهاجرين في الهجوم على قریش . فقام أبو بكر الصديق من المهاجرين فقال وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب منهم فقال وأحسن ، وقام المقداد بن الأسود منهم فقال : يا رسول الله ، إمض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغنماد ^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم وسلم كان يريد الأنصار ، فتوجه إليهم وقال لهم : أشيروا علي أيها الناس .

وكان الأنصار قد أخذوا بتلك البطولة العظيمة التي ظهرت من المهاجرين ، فقام سعد بن معاذ سيد الأوس والأنصار جميعا ، وكانت منزلته فيهم كنزلة أبي بكر الصديق في المهاجرين ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . فقال : أجل .

(١) موضع بناحية اليمن

فقال له : قد آمنابك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنجن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ^(١) فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصُّبُر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسيرنا بنا على بركة الله .

فَسَيَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سَعْدُ ، وَقَالَ : سِيرُوا وَأَبْشُرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ^(٢) وَاللَّهُ لَكَأَنِّي الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ .

وبهذا انقلب ما بين المهاجرين والأنصار من معاهدة دفاعية إلى معاهدة دفاعية هجومية ، فتساووا جميعا في هذه المعاهدة ، ووفى فيها كل منهما للآخر في هذه الفترة وما بعدها ، وامتد هذا الحلف إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما بعده من العهد الإسلامي المختلفة ، بل صار الأمر بين الفريقين أقوى من حلف يجمع بين مختلفين في دين أو وطن ، لأنه صار إلى إخوان متين ، زالت فيه

(١) يعنى بحر القلزم ، وهو البحر الأحمر

(٢) المير أو النفير

الفوارق بينهما ، وانقلبا فيه إلى أمة واحدة لا خلاف بينهما ، ولا يمتاز
أحد منها على الآخر بشيء .

نعم وفي الأنصار لإخوانهم المهاجرين ، ولم يسمعوا فيهم
لو شايات أقر بائهم من المنافقين ، وحلفائهم القدماء من اليهود ، وفي
النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فاتخذ المدينة وطنه ، وآثرها على
مكة وطنه الأول بعد فتحها ، ولقد خاف الأنصار بعد فتحها أن
يؤثر قومه عليهم ، وكان قد آثر بعضها منهم بشيء من غنائم حُنَيْن
تأليفهم ، فجمع الأنصار وقال لهم : يامعشر الأنصار ، ما مقالة
بلغتني عنكم ؟ ألم أجدكم ضللاً لا فهداكم الله بي ، وأعداء فألف الله
بين قلوبكم بي ، إن قرىشا حديثو عهد بكفر ومصيبة ، وإنى أردت
أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتم يامعشر الأنصار في أنفسكم لشيء
قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلوا ، ووكلكم إلى إسلامكم الثابت
الذي لا يزول ، ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس
بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحلكم ، فوالذي نفس
محمد بيده لو لا الهجرة لسكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس
شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم
الأنصار ، وأبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا :
رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

(٢) بين المسلمين واليهود

انقضت الفترة السابقة واليهود ينادون المسلمين بما كانوا ينادونهم به ، والنبي صلى الله عليه وسلم يطاولهم لعلمهم يرجعون عن غيرهم ، ولأنه كان طارئاً على المدينة ، ولم يكن ما بينه وبين الأنصار قد وصل إلى مثل ما وصل إليه بعد غزوة بدر .

فلما انتصر المسلمون في غزوة بدر ذلك الانتصار العظيم ، أكل النبيك قارب اليهود ، وبلغ حسدكم للمسلمين ما بلغ ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلين ليبرأ أهل المدينة بذلك النصر ، فمكبر ذلك على اليهود ، وقال كعب بن الأشرف : أسقى هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجال ، وهؤلاء أشرف العرب ، وملوك الناس ، والله لأن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها .

وكان كعب طويلاً جسيماً ذا بطن وكمامة ، وكان يقول الشعر ويحجبه ، وقد ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، فلما تيقن الخبر ورأى الأسرى يخرج إلى قریش يبكي قتلاهم ، ويعرض بأشعاره على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى المدينة فتغزل في نساء المسلمين ، وذكرهن بسوء ، وأخذ يحرص التماس على المسلمين .

وكان يهود بني قيس شقاع ينزلون بين المسلمين بالمدينة ، وكانت

منازلهم عند جسر بطن حان مما يلي العالية ، وقد اتخذوا الصياغة بالمدينة حرفة لهم ، فكانوا أكثر اليهود مالا ، وأشدهم شجاعة وبغياً ، وكان بينهم وبين عبد الله بن أبي ريس المنافقين حلف قبل الإسلام ، فزاد هذا في بغيتهم ، وظنوا أن عبد الله لا يفرط ، بلغ من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بحمل^(١) فباعته بسوق بني قينقاع ، ثم جلست إلى صائغ بها من اليهود ، فجعل هو وإنخوانه يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فحقدته إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواؤها ، فضحكوا عليها ، فصاحت واستغاثت ، فوئب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .

فرأى النبي صلى الله أن يضع حداً لهذه الخيانات من اليهود ، وقد صار في حال تمسكه من وضع حد لها ، فبدأ يهود بني قينقاع ، لأنهم كانوا يخالطون المسلمين بالمدينة ، وكانوا أكثر بغياً وخيانة من غيرهم ، وأعمل ما يحصل لهم يردع غيرهم عن غيرهم ، ويحملهم على مراعاة عهدهم للمسلمين ، وتقدير ما بذلوا لهم في ذلك العهد من مساواتهم بهم في وطنهم العربي ، وعدم امتيازهم فيه بشيء عليهم . فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بني قينقاع بسوقهم ، ثم قال لهم : يا معشر اليهود ، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش

(١) الجلب كل ما يؤتى به إلى السوق لبيع فيها

من النعمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد الله إليكم .

فقالوا له : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ، لا يغرّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصببت منهم فرصة ، إنا والله لنحاربناك لتعلمن أننا نحن الناس .

فعزم النبي صلى الله عليه وسلم على إخراجهم من المدينة إلى الوطن الذي نزحوا منه إليها ، ولسكنه أراد أن يعرض عليهم الإسلام قبل أن يخرجهم ، فلم يجيبوه إلى الإسلام ، ولم يحملهم ما أراد من إخراجهم على أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعلموا أنهم سيحافظون على العهد الذي أخذ عليهم ، بل هددوه بقوتهم ، ومضوا في عداوتهم وبخيتهم .

فلم يجد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يعلن الحرب عليهم ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة في حصونهم ، حتى نزلوا على حكمه ، ثم سألوه أن يخلي سبيلهم ، وأن يجلوا من المدينة ، وأن لهم النساء والذرية ، وله بقية الأموال من السلاح وآلات الصياغة وغير هذا من أموالهم ، فأخلى سبيلهم على ذلك ، وخرجوا من المدينة إلى أذرعات بالشام فنزلوا بها .

ولم يتحرك عبد الله بن أبيّ إلى نصرهم ، ولم يتحرك يهود بني النضير وبني قريظة إلى الدفاع عنهم ، لأنهم لم يروا وجهاً لهم في

الانضمام إليهم بعد أن قابلوا المسلمين بالشدة ، وهددوهم بالحرب ،
وكان في رجوعهم إلى المحافظة على عهدهم وقاية لهم عما جرى لهم ،
ولسكنهم أبوا هذا فتحملوا نتيجةه وسخطهم .

ولقد كان المسلمون مخلصين لذلك العهد الذي بذلوه لليهود ،
لأن الإسلام لا يأبى مثل هذه اليهود ، ولا يزال يمد يده بها إلى
كل من يرى مسالمة ، ويخلص للعهد الذي يعقد بين أمته وغيرهم ،
لأنه يريد أن يعيش في صفاء مع الناس ، وأن يكتفى بينهم بالدعوة
السلمية بالحكمة والوسطة الحسنة ، وهو يتساهل مع أهل الكتاب
من اليهود والنصارى ونحوهم أكثر من غيرهم ، لأنهم أقرب أهل
الآديان إليه ، ولهذا أباح للمسلمين مخالطتهم وأكل طعامهم
وذبحاتهم والتزوج من نسائهم ، ولم يأب لهم أن يعيشوا معهم أمة
واحدة ، وأن يحسبهم وطن واحد ، فيكون لهم ما لهم وعليهم
ما عليهم ، ولهم شأنهم في دينهم واحسانهم الخاصه بهم ، وهذه
سرية دينية واسعة لا نظير لها في دين من الآديان ، ومعاملة كريمة
لا نظير لها في أمة من الأمم .

ولكن اليهود أعماه حقدهم عن إدراك فضل الإسلام عليهم ،
ورأوا أنهم كانوا قبله قد علوا على العرب في بلادهم ، فصعب
عليهم أن يسوى الإسلام بينهم وبينهم ، وخافوا أن ينهض الإسلام
بالعرب نهضة ترفعهم إلى مستواهم ، وهم لا يحبون أن يصل أحد

إلى ذلك المستوى ، لأنهم في زعمهم شعب الله المختار ، وأحق الشعوب بخير الدنيا والآخرة .

وسرى فيما بعد أنهم لم ينتفعوا بما جرى لبني قينقاع ، ولم يكن لهم منه عظة وعبرة تخفف من حقدهم ، وتحملهم على مراعاة ذلك العهد الذي أخذ عليهم .

وقد كان الإسلام أسمى بأن يحسد اليهود على ما بلنوه في المدينة من ذلك الغنى الراسخ ، وذلك الجاه العظيم ، ولكن الحسد ليس من خصال الإسلام ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يخطئ ، والمنافق يحسد ، والنفقة من الخصال الممدوحة ، لأنها تمنى مثل ما للخير من نعمة ، أما الحسد فهو تمنى زوال نعمة الخير ، فلا يرضى الإسلام لنفسه أن يحسد اليهود على ما بلنوه من مال وجاه ، وإنما يعمل على أن يصل أهله إلى مثل مالهم وجاههم ، وليس في هذا ما يؤخذ عليه ، وإنما هو تنافس ينفع الناس ولا يضرهم ، ويسوى بين طبقات الأمة في توزيع الثروة ، فلا تستأثر بها طائفة دون طائفة ، ولا يكون الغنى وقفا على بعض الناس ، والفقر وقفا على آخرين منهم .

لقد كان ما جرى لبني قينقاع في السنة الثانية من الهجرة ، وقد كان فيه ما يكفي لخل من بقي من اليهود بجوار المدينة على التفكير فيما هم فيه من البغى على المسلمين ، وعدم الوفاء بعهودهم ، ولكن

حققت اليهود على المسلمين كان يعميهم عن هذا التفكير ، فلم يفد
ما جرى لبني قينقاع شيئاً فيهم ، بل مضوا هم والمنافقون في تدبير
المكايد للمسلمين ، وفي الاتصال بقريش في السر للاتفاق معها على
القضاء عليهم .

فلما كانت السنة الثالثة من الهجرة أقبلت قریش بمجموع كثيرة
تريد الهجوم بها على المدينة ، فأخذ يهود بني النضير يكيّدون
للمسلمين ، ويظهرون العداوة والبغضاء لهم ، وقد طلب النبي صلى
الله عليه وسلم منهم أن يقرضوا أموالهم لله ليجاهد بها في سبيله ،
وهم يؤمنون به كما يؤمن المسلمون به ، وقریش مشرّكة تعبد الأوثان
والأصنام ، فقالوا له : نزعنا أن ربنا يستقرض أموالنا ،
وما يستقرض إلا الفقير من الغنى ، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله
إذن فقير ونحن أغنياء . فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمُ الْآيَةَ — ١٨١ — من
سورة آل عمران (اَللّٰهُ سَمِعَ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) .

وهكذا أبى أولئك اليهود أن يساعدوا النبي صلى الله عليه
وسلم بشيء من أموالهم ، مع أن المعاهدة التي أخذوها على أنفسهم
تقضى عليهم بذلك ، وقد كان يريد أن يكتفى منهم بالمساعدة المالية ،
ولا يريد أن يشاركوه في الجهاد بأنفسهم ، لأنه لم يكن مطمئناً إليهم ،

ولو أنه طلب هذا إليهم لتشاقلوا عنه أيضا ، وقد دعاهم مُخِيرِيقُ
اليهودى إلى الجهاد حين أقبلت قريش ، وهو أحد بنى ثعلبة بن
الْفِطَيْيُون ، فقال لهم : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر
محمد عليكم لحقٌّ . فقالوا له : إن اليوم يوم السبت . فقال لهم :
لا سبت لكم . ثم أخذ سيفه وعدته وقال : إن قُتِلْتُ فمالي لمحمد
يصنع فيه ما شاء . ثم غدا إلى القتال فقاتل حتى قتل ، فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : مُخِيرِيقُ خَيْرُ يهود .

وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم من مُخِيرِيق أن يشاركه في
ذلك القتال ، لأنه كان مخلصا للمسلمين ، ولم يخش من مشاركته لهم
ضررا عليهم ، ولهذا رد كتيبة خرجت من اليهود لتشاركه في القتال ،
وقد سأل عنها ف قيل له : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيٍّ من اليهود ،
فأمر بردهم وقال : إنا لا نستعين بكافر على مشرك .

وقد أصيب المسلمون في هذه الغزوة (غزوة أُحُد) بما أصيبوا
به ، فأظهر بنو النضير الشجاعة فيهم ، وأظهروا ما كانوا يخفونه من
العداوة والبغض ، وأخذوا يطعنون في النبي صلى الله عليه وسلم
ويشككون في نبوته بما حصل للمسلمين من الهزيمة في هذه الغزوة ،
وكانوا يقولون لمن يجلس إليهم : ما محمد إلا طالع ملك ، ما أصيب
بمثل هذا بنى قُط ، أصيب في بدنه ، وأصيب في أصحابه .

وبهذا نقض بنو النضير عهدهم مع المسلمين ، ولم يقوموا لهذا

الوطن الذي آواهم بواجب الدفاع عنه ، فصار من حق المسلمين أن يجاؤهم عنه ، كما أجلاوا بني قينقاع من قبائلهم ، ليعتالوا غيرهم من اليهود درسا بتديدا ، يعاينهم المحافظة على العهود ، ويذكروهم بما يحب عليهم لهذا الوطن .

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، أن اخرجوا من بلدي فلا تسكنوني بها ، وقد أجيئتكم عشرا ، فمن روى منكم بعد ذلك فمتربت عنقه .

فلما بلغهم محمد بن مسلمة ما أرسل به إليهم هموا بالخروج ، وقد عرفوا ما حصل لبني قينقاع من قبلهم ، ولكن عبد الله بن أبي أرسل إليهم : لا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي يمدخلون حصونكم ، ويموتون عن آخرهم .
فانقروا بقول عبد الله بن أبي ، وأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : إنا نخرج من ديارنا ، نأمنح ما بدا لك .

وكانوا ينزلون بوادي بطحان بظاهر المدينة ، على ميلين أو ثلاثة منها ، فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، وحاصرهم خمسة وعشرين ليلة ، ولم يتحرك عبد الله بن أبي لمساعدتهم ، فلما يئسوا منه أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجابهم ويكشف عن دمائهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، فأجابهم إلى ما طلبوا . فخرجوا من واديهم فقصده بعضهم خيبر

فنزل بها ، وقصد بعضهم أذرعات فنزل بجوار بني قينقاع .

وقد بقي بنو قريظة من اليهود الذين دخلوا في عهد المسلمين ، وكانوا أوعى لعهدهم من بني قينقاع وبني النضير ، لأنهم كانوا ضعفاء في الجاهلية ، فكان بنو النضير يبعثون عليهم ، وينزلونهم في منزلة دون منزلاتهم ، ومن هذا أنهم كانوا يحملون دية الواحد من بني قريظة نصف دية الواحد من بني النضير ، فكانت الدية من التمر أربعين ومائة وسق لبني النضير ، وسبعين وسق لبني قريظة فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم شكوا إليه ذلك ، فسوى بينهم وبين بني النضير في الدية ، وحكم بأن دم النضير ظي وفاء وفاء من النضير .

فعرف بنو قريظة للإسلام جميلة عليهم ، ولم يحركوا ساكنا عند جلاء يهود بني قينقاع وبني النضير ، ومكثوا على هذا إلى السنة الخامسة من الهجرة ، وكان زعماء بني النضير قد عمأوا على إثارة قريش وقبائل العرب على المسلمين ، وقد أعمأهم الحق عليهم حتى باعوا في ذلك دينهم ، فإنهم لما قدموا على قريش ودعوههم إلى حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا لهم : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه .

وهذه أكبر فضيحة لأولئك اليهود ، لأن دين محمد هو التوحيد ،

ودين قريش هو الشرك ، ودين اليهود هو التوحيد لا الشرك ، فكيف يحكمون بأن دين الشرك خير من دين التوحيد ، وقد أخذ الله عليهم هذا في الآية — ٥١ — من سورة النساء (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) ثم حكم بأن هذا منهم ردّة عن دينهم في الآيتين — ٨٠ ، ٨١ — من سورة المائدة (ترى كثيراً منهم يتولّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبُيُوتِ مَا قَدِمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) فالمراد بالنبي موسى عليه السلام ، وبما أنزل إليه التوراة .

وقد تعهد سفيان بن أخطب سيد بني النضير لقريش أن يحمل بني قريظة على نفس عهد المسلمين إذا أجابوا إلى شروطهم ، فسارت قريش ومن انضم إليهم من قبائل العرب في عشرة آلاف لحرب المسلمين ، فخندق النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة ، وأتى هذا الجيش الكثير فحاصرها ، وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف رجل ، وقد طال الحصار عليهم حتى ضاق به فقراؤهم ، وأظهر أهل النفاق ما تكنّه صدورهم ، فأخذوا يفرون إلى بيوتهم زاعمين أنها عورة ، وأنهم يخافون أن يغير العدو عليها .

وكان بنو قريظة آمنين في حصونهم لا يجارون مع المسلمين
كما يقضى عهدهم عليهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يأمن
جانب اليهود في الحرب ، فسار اليهم حُيَّ بن أخطب ليحملهم
على نقض عهدهم للمسلمين كما وعد قريشا ، ونزل على سيدهم كعب
ابن أسد ، فقال له : ويحك يا كعب ، جئتك بعزٍّ الدهر ، وببحر
طام ، جئتك بقريش على قادتسبها وسادتسها حتى أنزلتهم بمجتمع
الأسياال من دومة ، وبخطفان على قادتسها وسادتسها حتى أنزلتهم
بذَنبٍ نَسَقْتُمْنِي إلى جانب أحسَدُ ، قد همدوني وعاقدوني على
ألاَّ يرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق
«مامه» فهو يرعد ويرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حُيَّ ، فدعني
وما أنا عليه ، فإنني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

فلم يزل حي يفتله في الذروة والغارب حتى أجابه إلى نقض
عهد المسلمين . بعد أن أعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش
وخطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه في حصنه ، فيصديه من
المسلمين ما يصديه .

فاشتد الخطب على المسلمين حين علموا بنقض بني قريظة عهدهم ،
ووقعوا في رعب شديد ، حتى قال بعض المنافقين : كان محمد يعدنا

أن نأكل كنوز كِسْرَى وقَيْصَر ، وأُحَدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وهنا تدارك الله المسلمين برحمته ، وهدى زعيما من زعماء المشركين إلى الإسلام ، وهو نُسَيم بن مسعود الأشجعي ، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السر ، وأخبره بإسلامه ، وطلب إليه أن يأمره بما شاء ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد ، فَخَذَلْنَا عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ ، فإن الحرب خدعة .

والخدعة هنا سياسة بارعة شريفة تقي من العدو الظالم ، وتعمل على التخلص منه بالحيلة ، ولو استعمل فيها الكذب ، لأن الضرورات تباح فيها المحظورات بل تجب ، وقد ضاق الأمر بالمسلمين ، وأصبحت هذه الوسيلة لازمة لإنقاذهم ، وقد تمت على وجه كريم لا شيء فيه يدنس الشرف ، أو يقدح في براءتها من الإثم ، ولم يرتكب فيه ما يرتكب الآن في مثل هذه الوسائل ، من الاتجار بالأعراض ، وبذلها رخيصة في سوق التجسس ، وما إلى هذا مما يقدح في الشرف ، ويخلُّ بالمرءة ، وبأبواب الدين والشُّلُق الكريمة .

فسار نسيم بن مسعود إلى بني قريظة ، وكان لهم نديا ، فلما رأوه رَحَبُوا به ، وعرضوا عليه الطعام والشراب ، فأخبرهم بأنه جاءهم لغير هذا ، وأنه يخاف عليهم إذا حاربوا محمدا أن تتركهم قريش وليس لهم طاقة به ، وأنه يرى أن يأخذوا رُهنًا من أشراغهم تكون

ثقة بأيديهم قبل أن يحاربوا معهم ، وقد استحسنوا ما أشار به عليهم ،
فأمرهم بكتان اتصاله بهم .

ثم سار إلى قریش فأخبرهم بأن بني قريظة ندموا على نقض
عهد محمد ، وأنهم يريدون أن يرضوه بأخذ سبعين من أشرافهم
ليكونوا رهنا عندهم ، ثم يقدموهم إليه ليقتلهم ، وطلب منهم أن
يكتنموا ما حدثهم به .

فلما أرسلوا إلى بني قريظة يدعونهم إلى القتال طلبوا منهم أن
يعطوهم رهنا ، حتى لا يتركوهم ويذهبوا إلى مكة ، فاعتقدوا صدق
ما أخبرهم به نعيم بن مسعود عنهم ، ولم يجيبوهم إلى ما طلبوا من
الرهن ، فلم يجيبوهم أيضا إلى ما طلبوا من القتال ، وفسد ما بينهم
بهذه الحيلة البارة .

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بعمل أبرع من عمل نعيم بن
مسعود ، أمكنه به أن يُقدم إليه زعيمين من زعماء الجيش المحاصر :
وهما عُبَيْدُ بْنُ حِصْنٍ والحارث بن عوف ، ليعرض عليهما صلحا
منفردا على أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة ، وقد جاء إليه في خفية ،
وطلبا منه نصف هذه الثمار فأبى ، ثم أرسل إلى سعد بن معاذ سيد
الأوس وسعد بن عُبَادَةَ سيد الخزرج ، فاستشارهما في ذلك الصلح ،
فقالا له : يا رسول الله ، إن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن

كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعوا وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف . فقال لها : لو أمرني الله ماشاورتكما . فقالا لعيينة بن حصن والحارث بن عوف : ارجعا ، بيننا وبينكم السيف .

فرجع عيينة بن حصن والحارث بن عوف بعد أن قاما بهذه الخيانة لقريش ، فأفسدت نفوسهما ، وملأتها قلقا وخوفا من أن تعلم قريش أمرها ، ولا بد أن المسلمين أشاعوا اتصالهما بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بد أن قريشا وصلها ما أشاعه المسلمون عنهما ، فدخل نفوسها شيء كثير من جهتهما ، وضعف ثقتها فيهما ولقد أصبح الجيش المحاصر بفضل هذين العاملين البارعين يخشى بعضه بعضا ، فوقع الارتباك في صفوفه ، وملأ الرعب قلوب جنوده ، وما هي إلا ريح باردة أرسلها الله في ليلة مظلمة فأدركهم فيها من الرعب ما أدركهم ، وخافوا أن يبيستهم المسلمون وبنو قريظة فيها ، فأجمعوا على الرحيل قبل الصباح ، ولولا هذان العاملان البارعان لو صلوا إلى ما أرادوه من استئصال المسلمين .

ولقد كان جرم بني قريظة أشد من جرم بني قينقاع وبني النضير ، لأنهم ارتكبوا هذه الخيانة العظمى لوطنهم ، وانضموا إلى أعدائه في هجوهم عليه ، فلم يمهلهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد رحيل قريش ، وكان قد رجع إلى المدينة في وقت الظهيرة ، فقال لأصحابه : لا يصلين

أحد منكم العصر إلا في بني قريظة . فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة ، إلى أن طلبوا أن ينزلوا من حصونهم على مثل ما نزل عليه بنو النضير ، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكمه من غير قيد ولا شرط ، فرضوا بذلك ، وقد مشى في أمرهم رجال من من الأوس ، لما كان بينهم من الحلف قبل الإسلام ، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم بمثل ما عامل بني النضير به ، فأبى أن يجيبهم إلى هذا ، ولكنه رأى من السياسة والحكمة أن يجعل الحكم فيهم لسعد بن معاذ سيد الأوس ، فحكم سعد فيهم بأن تقتل رجالهم ، وتسبي نساؤهم وذرايرهم ، وهذا هو حكم الخيانة العظمى في كل الشرائع القديمة والحديثة ، وقد انضموا إلى من كان يريد استئصال المسلمين ، فجزاهم الله تعالى استئصالا باستئصال

وهكذا انتهت معاهدة المسلمين ويهود المدينة بهذه السكوارث التي حلت بهم ، لأنهم لم يخلصوا لها حين عقدها ، وقد طاولهم النبي صلى الله عليه وسلم ما طاولهم ، وأخذهم بنقض العهد قبيلة بعد قبيلة ، ليعطى من بقي منهم مهلة لمراجعة أنفسهم ، ولكنه منهم قوم لا تؤثر فيهم هذه السياسة الكريمة ، ولا يمكن أن تقلع من نفوسهم ما طبعت عليه من إيثار مصالحهم الخاصة على غيرها ، والنظر بعين العداوة إلى كل من يخالفهم في دينهم أو جنسهم .

(٣) بين المسلمين والمنافقين

كانت هذه الفترة كسابقتها فيما بين المسلمين والمنافقين ، فاستمر المنافقون على السكيد للمسلمين فيما بينهم ، واستمر النبي صلى الله عليه وسلم يغضى عنهم ، وينهج سياسته الحكيمة في مطاوتهم والحد منهم ، ومراعاة قرابتهم لأنصاره من الأوس والخزرج ، وقد أراد في هذه الفترة أن يتخلص أولا من أمر يهود المدينة ، لأنهم كانوا أقوى كيذا من المنافقين ، ولأنه رجا أن يصلح بعض حال المنافقين بعد تخلصه منهم ، فيقل عددهم ، ويخففوا من كيدهم .

وقد جرت منهم في هذه الفترة أحداث عاجها النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السياسة الحكيمة ، فمنها ما جرى من عبد الله بن أبي في غزوة أحد ، وكان قد خرج فيها مع المسلمين لا ليشاركهم في الجهاد ، ولكن لينفذ مؤامرة دبرها لئلا يخلصوا إلى الشَّوْط — بين المدينة وأحد — حتى انخزل بالمنافقين وبعض الضعفاء ، وكانوا يبلغون ثلث الجيش ، فتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام ، وقال لهم : يا قوم ، أذكركم الله ، لا تخذلوا قومكم ونيكم عندما حضر عدوهم .

فقال له عبد الله بن أبي : لو نعلم أنكم تقهاتلون لما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال .

فلما استعصر على عبد الله بن عمرو بن حرام قال لهم : أبعدهم الله

أعداء الله ، فسيغنى الله عز وجل عنكم نبيه صلى الله عليه وسلم .
وقد نزل في قول عبد الله بن أبي قولة تعالى في الآيتين ١٦٦ ،
١٦٧ — من سورة آل عمران (وما أصابكم يوم التقى الجمعان
فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا
قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لولا أن نعلم قتالاً لا تبعناكم
هؤم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم
ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) .

وقد كان عبد الله بن أبي قبل غزوة أحد له مقام يقومه كل
جمعة إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فكان يقوم
هو فيقول : أيها الناس ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين
أظهركم ، أكرمكم الله به وأعزكم به ، فأنصروه وعزروه واسمعوا له
وأطيعوا . ثم يجلس ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم من أحد
إلى المدينة وجاء يوم الجمعة ، قام عبد الله بن أبي على عادته يريد
أن يقول ما كان يقول ، وكأنه نسي ما فعله من رجوعه في هذه
الغزوة بثلاث الناس ، ومحاولته إحداث الرعب بهذا في قلوب
المسلمين ، فأخذ الناس بثيابه من نواحيه وقالوا له : اجلس عدو
الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى
رقاب الناس وهو يقول : والله لكانما قلت بجرأ^(١) أن قمت أشد

أمره ! فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد ، فقال له : مالك
وَيْلَكَ ؟ قال : قُتُّ أشدُّ أمره فوثب على رجال من أصحابه
بجبنوني ويعنفوني ، لكأنما قلت بجرأ أن قُتُّ أشدُّ أمره .
فقال له الأنصاري : ويلك ، إرجع يستغفر لك رسول الله صلى
الله عليه وسلم . فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي .

ومن تلك الأحداث مؤامرة المنافقين على المهاجرين في غزوة
بني المصطلق ، وكانت في السنة الخامسة من الهجرة ، وذلك
أن أجيرا لعمر بن الخطاب من غفار وأنصاريا تزاخما على الماء
فاقتتلا ، فصرخ الأنصاري : يامعشر الأنصار . وصرخ أجير عمر :
يامعشر المهاجرين . فأقبل الذُّعر من الفريقين ، وكادوا يقتتلون ،
فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : ما بال دعوى الجاهلية ؟
دعوها فإنها مُنْتَنِة . ثم أصلح بين الفريقين .

فجمع عبد الله بن أبي رهاط من الخزرج ، وقال لهم : ما رأيت
كالיום مذلة ، أو قد فعلوها ؟ قد نافرنا وكاثرونا في ديارنا ، والله
ما أعدُّنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول — سَمِّنْ كَلِيكَ
يَا كَلَك — أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها
الأذلُّ . ثم أقبل عليهم فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهموهم
بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم
لتحولوا إلى غير داركم .

وكان بين الحاضرين في مجلسه من قومه زيد بن أرقم . وكان
علما محدثا ، فنقل كلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عنده
عمر بن الخطاب ، فاستأذنه في قتله فنهاه عنه ، وقال له : فكيف
يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن
الناس بالرحيل .

فارتحل الناس إلى المدينة ، ولما علم عبد الله بن أبي النبي
صلى الله عليه وسلم بلغه مؤامرتهم ، جاء إليه فحلف ما قال شيئا
عما بلغه ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن
يكون الغلام — زيد بن أرقم — قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ
ما قال الرجل . وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي — وكان صادق
الإيمان على عكس أبيه — فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول
الله ، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن
كنت لابد فاعلا فمرفني ، فمأحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت
أن الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإنني أخشى أن تأمر
به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي
يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ، ونحسن صحبته
بما بقي معنا .

وقد كان لهذه السياسة الكريمة أثرها في قوم عبد الله بن أبي

بعد هذا ، فكانوا إذا أحدث الحدث بعده هم الذين يعاتبونه
ويأخذونه ويعنفونه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فعلوا
ذلك يقول لعمر بن الخطاب : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته
يوم قلت لي اقتله لأرعدت آنف^١ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .
فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
أعظم بركة من أمرى .

وقد أنزل الله سورة المنافقين في هذه المؤامرة (إذا جاءك
المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله
والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، إتخذوا أيمانهم جنة فصدوا
عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم
كفروا فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون
كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنسى يؤفكون) الآيات .
وما أصدق قول الله تعالى في أولئك الضعاف من المنافقين ،
وما أحكم ما أمر به من أخذ الحذر منهم ، والاقتصار على هذا
في شأنهم ، لأنهم قوم ضعاف القلوب يحسبون كل صيحة عليهم ،
فشأنهم لا يخشى منهم أن يظهروا بحرب ، وإنما قُصِّصَ عليهم تدبير المكائد
والتجسس لأعداء المسلمين ، والأخذ بالحذر في هذا يكفي في النجاة
من ضرره ، وإفساد أمره ، ولا ينبغي أن يهتم في أمرهم بأكثر

من هذا ، لحقارة أمرهم ، وحقارة أمر رئيسهم عبد الله بن أبي ،
فإن ما أتاه في الحادثتين السابقتين لا يفعله رجل من الرجال ، وإنما
هو لعب أطفال ، وضعف أخلاق ، والطفل لا يعامل معاملة
الرجال ، وإنما يُغَضَى عنه ، ويهمل أمره .

وهكذا أهمل النبي صلى الله عليه وسلم أمر أولئك المنافقين ،
فلم يعتمد عليهم في شيء من أموره ، ولم يطلعهم على شيء من
أسراره ، بل تركهم يمرحون في نفاقهم حتى ينفضح أمرهم ، ويكتوون
بنار الحقد في نفوسهم حتى تأتي عليهم .

السياسة الخارجية من غزوة بدر إلى صلح الحديبية

(١) بين المسلمين وقريش

ابتدأ المسلمون قريشا في الفترة السابقة بالهجوم على قوافلها التجارية إلى الشام ، وقد انقلبت قريش في هذه الفترة إلى الهجوم على المدينة ، فغزتها مرتين : أولاها في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد سارت إلى غزو المدينة في ثلاثة آلاف رجل ، ومعها الأحابيش — وهم حلفاؤها من بني النضير وبنو النضير وغيرهم — فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليشاورهم فيما يفعله لدفع هذا الغزو ، فلما اجتمعوا أشار بعضهم أن يبقوا في المدينة ، ليتحصنوا بها ويقاتلوا داخلها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحاب هذا الرأي ، وأشار بعضهم بالخروج إلى قريش ومقاتلتها خارج المدينة ، وكان أصحاب هذا الرأي أكثر عددا من أصحاب الرأي الأول ، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ برأيهم وإن خالف رأيه ، ليكون الأخذ برأي الأكثر عددا أساس حكم الشورى ، وهذا هو الأساس الذي تجرى عليه الآن الحكومات الشورية الحديثة ، لأن الخلاف في مثل هذا إنما يكون في مسائل اجتهادية ، وفي الأخذ برأي الأكثر فيها أمان من الفتن ، وحفظ لوحدة الأمة . وهذه الغزوة تسمى غزوة أحد ، وقد رتب النبي صلى الله

عليه وسلم فيها جيشه ، وكان عدده ألف رجل ، واختار الرماة مكانا أمرهم ألا يبرحوه نصر المسلمون أو غلبوا ، ثم دار القتال فانتصر المسلمون وأخذوا يجمعون الغنائم ، فنسى الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتركوا أما كنهم إلى جمع الغنائم ، وكشفوا ظهر المسلمين لأعدائهم ، فأتى خالد بن الوليد — وكان لا يزال مشركا — فدهمهم بجيش من خلفهم ، فأوقع بهم وهم مشتغلون بجمع الغنائم ، فانهزم كثير منهم إلى المدينة ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه ، فأصيب هو ومن ثبت معه بجراحات كثيرة ، ولكنهم صبروا وأظهروا من ضروب الشجاعة ما بهر المشركين ، وجعلهم يرضون بما أصابوا من المسلمين ، ويعلمون وقف القتال ، ولعلمهم خافوا أن يرجع من انهزم من المسلمين إليهم ، فبهزموهم كما هزم موهم أولا .

وقد أراد الله أن يمتحن المسلمين في هذه الغزوة ، بعد أن أظفرهم بالمشركين في غزوة بدر ، ليعلموا أن أمرهم سيجرى على ما سننه للناس في حروبهم ، نصر وهزيمة ، ليدوقوا طعم الاثنين ، فلا يبطرهم النصر ، ولا توقعهم الهزيمة في اليأس ، وليعلموا أنهم شعب كسائر الشعوب ، فلا يغتروا بأنفسهم كما اغتر أهل الكتاب من قبلهم ، ولا يعتقدوا أن نصر الله ينال جزافا ، بل ينال بالأخذ بأسبابه ، من حسن الطاعة للقائد ، والإخلاص في القتال ، إلى غير هذا من أسباب النصر .

وكانت الغزوة الثانية في السنة الخامسة من الهجرة، وقد قصدت قريش المدينة فيها بعشرة آلاف رجل، وكان معها حلفاؤها من اليهود وبنى غطفان وبنى مُرَّة وبنى أشجع وبنى سُليم وبنى أسد وغيرهم من قبائل العرب.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يستشيرهم في أمرهم، فقال له سلمان الفارسي: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا. فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه، لأن الإسلام لا يأبى أن يأخذ بالنافع من غيره، ولا يعرف التعصب الأعمى الذي يمنع الشعوب الجاهلة من الاستفادة من غيرها، بل يقوم أمره على المحافظة على القديم الحسن، والأخذ بالجديد النافع.

فأقام النبي صلى الله عليه وسلم خندقاً شمالي المدينة، من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، لأن باقي جهاتها كانت مشتبكة بالبيوت والنخيل، فلا يمكن العدو أن يأتيها من ناحيتها.

فلما وصل المشركون إلى المدينة وجدوا أمامهم ذلك الخندق، فأوقعهم في الدهش والخيرة، حتى قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. وقد حاولوا أن يقتحموه فلم يمكنهم. فأقاموا أمامه يحاصرون المدينة حتى طال الحصار عليهم، وأوقع الله الخلف بينهم، فانصرفوا عن المدينة في ليلة أرسل الله عليهم فيها

ريحا عاتية ، وقد أدركهم الرعب والخوف من المسلمين .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافهم : الآن نغزوهم
ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم .
وهذه الغزوة تسمى غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، وقد
رأت قريش فيها أنها تجارب عدواً لا تقدر على أساليبه في القتال ،
ولا تقوى على سياسته في الحرب ، وقد كلفها في حربه من الأموال
ما كلفها ، فلم تنل منه شيئاً ، فانصرفت نفوسها عن غزو المدينة ،
وابتدأ أمرها في الضعف بعد هذه الغزوة ، وبهذا كانت هذه الغزوة
نقطة تحول فيما بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش ، فابتدأ النبي صلى
الله عليه وسلم يسلك معها سياسة جديدة تلائم ما صارت إليه ،
وسندينها في الفترة الآتية .

(٢) بين المسلمين وباقي العرب

كان جمهور القبائل العربية يميل إلى قريش ، لأنها توافقهم
في الشرك ، ولكنهم لم يشاركوها في الفترة السابقة ، لأنهم ظنوا
فيها القدرة على حرب المسلمين ، فلما أصيبت في غزوة بدر بما
أصيبت به حالفها كثير من تلك القبائل على حرب المسلمين ، كبنى
الهون ، وبنى المصطلق ، وبنى غطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ،
وبنى سليم ، وبنى أسد .

فكثرت بذلك أعداء المسلمين في جزيرة العرب ، وقد اتبع النبي صلى الله عليه وسلم في حربهم سياسة حكيمة جبرت قلة عدد المسلمين ، وكفلت لهم النجاة من المآزق التي كانوا يقعون فيها ، فكان إذا رأى هذه القبائل قد اجتمعت لحربه ، تركهم يسرون إليه بالمدينة ، ليحاربهم قريباً من موطنه ، ويحتمي بما حبته الطبيعة من جبال ونحوها مما يساعده على قتالهم ، وكان هذا يكلفهم سيراً شاقاً إليه ، ويبعد بهم عن موطنهم ، فلا يصلون إليه إلا وقد أنهمكهم السفر ، وفقدوا كثيراً من قوتهم ونشاطهم ، وهذا هو الذي حصل منه في غزوة أحد وغزوة الأحزاب ، فلولا قربهم من موطنه في الغزوة الأولى لكانت نتيجتها وبالا على المسلمين ، فإن قريشاً وحلفاءها لما رأوا ثبات النبي صلى الله عليه وسلم بعد انهزام بعض أصحابه ، خافوا أن يرجع إليه من انهزم منهم لقرب موطنهم ، فأعلنوا وقف القتال ، وكان المسلمون في أشد حاجة إلى وقفه ، وكذلك كان لقرب المسلمين من موطنهم في غزوة الأحزاب أثره في نجاتهم من مآزقها ، ولولا ذلك لضاعت قلتهم في تلك الجموع التي كانت تحاربهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يبتث العيون والأرصاد على هذه القبائل التي تحالفت على حربه ، فإذا علم أن قبيلة منها تريد أن تأخذه بغتة في المدينة أخذها هو قبل أن تأخذه ، وباغتها بحربه

قبل أن تباغته ، كما فعل بنى المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة ،
فقد علم أنها تجمع الجموع لحربه في تلك السنة ، وكان هذا قبل غزوة
الأحزاب ، وقد سبق أن هذه القبيلة ساعدت قريشا في غزوة أحد ،
فسار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوقع بهم قبل أن يستعدوا
له ، وقد حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فلم يتركوا لهم
مجالا للهرب ، بل قتلوا عشرة منهم ، وأسروا باقيهم مع النساء
والذرية ، واستاقوا إبلهم وشيائهم ، وكانت الإبل ألفي بعير ،
والشيء خمسة آلاف ، وكان في النساء برة بنت الحارث سيدهم ،
فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلا كريما يبين لهم
شرف الإسلام ، ويظهر لهم أن سياسته لا تقوم على الطمع والجشع ،
فتزوج برة بنت الحارث ليحمل أصحابه على إكرام قومها ، ويبحثهم
على الصفح عنهم ، وقد كان له ما أراد ، فإنه لما فعل هذا قالوا :
أصهار رسول الله ، لا ينبغي أسرهم في أيدينا . فمَنُّوا عليهم بالعتق ،
وردوا إليهم أموالهم ، فأسلموا عن آخرهم ، وقد سمى النبي صلى
الله عليه وسلم برة جُؤَيْرِيَّة ، فكانت كما قالت عائشة أيمن امرأة
على قومها .

(٣) بين المسلمين والنصارى

كانت صلة المسلمين بالنصارى مقتصرة في الفترتين السابقتين

على أهل الحبشة ، وذلك بوساطة من هاجر إليهم من المسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ، وقد بقوا هناك أيضاً في هذه الفترة ، في خير جوار ، وأطيب عيش ، فكانت العلاقة بين المسلمين وأهل الحبشة علاقة لا يشوبها كدر ، ولا يعكر صفاءها شيء ، وكان للمسلمين دينهم ، ولأهل الحبشة دينهم ، والسياسة حكمها في الوفاء بعهد الجوار ، ولا يهمها ما بين الفريقين من اختلاف الدين .

وقد اتصل المسلمون في هذه الفترة بأهل دومة الجندل من النصارى ، وكانت مدينتهم تقع على حدود الشام ، وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة ، وبينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وكان أهلها يظلمون من يمر بهم من المسلمين في تجارته إلى الشام ، ولعلمهم غضبوا لتعرض المسلمين لقوافل أهل مكة ، لأنها كانت تمر عليهم فينتفحون بها ، فأرادوا أن ينتقموا من المسلمين ليكشفوا عن التعرض لها ، ولم يقتصرُوا على هذا ، بل أرادوا أن يقصدوا المسلمين بالمدينة ليقعوا بهم .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك خرج إليهم في ألف رجل ، وكان هذا في السنة الخامسة من الهجرة ، فلما دنا من مدينتهم خرجوا منها خوفاً منه ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصيب من أصيب ، وهرب من هرب ، ثم بث السرايا هنا وهناك فلم يجدوا أحداً ، فرجع إلى المدينة بما معه من غنائم .

ثم أرسل إليهم في السنة السادسة من الهجرة سرية بقيادة
عبد الرحمن بن عوف ، وأوصاهم ألا يَغْلِبُوا ولا يَغْدِرُوا ولا يَمْشُوا
ولا يقتلوا وليداً ، فأسلم رئيسهم الأصمغ بن عمرو ، وأسلم معه
جميع من قومه ، ورضى من لم يسلم منهم بدفع الجزية

وقد كان أهل دومة الجندل أول من حاربهم المسلمون من
النصارى ، وكانوا هم البادئين بحرب المسلمين ، فلم يحاربهم المسلمون
إلا بعد أن بدؤوهم بالعدوان ، وكان مرقف الإسلام منهم كموثقة
من قریش واليهود

السياسة الداخلية من صالح الحديبية إلى فتح مكة

(١) بين المسلمين والمنافقين

تمتد هذه الفترة من صالح الحديبية إلى فتح مكة، وكان صالح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وكان فتح مكة في السنة الثامنة منها، وقد خلت المدينة فيها من قبائل اليهود الثلاثة (بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة) فلم يبق فيها إلا هذان الفريقان : المسلمون والمنافقون

وقد بقى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة على سياسته في مطاولة المنافقين ، وإيثار أخذهم بالتساح والعفو ، ولا سيما أنهم في هذه الفترة آثروا أن يركنوا إلى السكينة والهدوء ، وأن يتركوا ما دأبوا عليه في الفترتين السابقتين من تدبير المؤامرات والمشاكل للمسلمين ، والسعى في نشر الفتنة بينهم ، وكان لهذا عاملان : أولهما أن اليهود هم الذين كانوا يحرضون أولئك المنافقين على هذه المؤامرات ، وكان أولئك المنافقون يجدون منهم حلفاء أقوياء ، فكانوا يظنون أنهم بمساعدتهم سيتمكنهم التغلب على المسلمين ، فلما غلب اليهود على أمرهم خاف أولئك المنافقون على أنفسهم ، وأشفقوا أن يخرجهم المسلمون من المدينة كما أخرجوا اليهود من قبلهم ، وهم قوم ضعاف النفوس ، فلا يمكنهم أن يقوموا بعمل

وحدهم ، وقصارى أمرهم أن يكونوا آلات بيد غيرهم ، فإذا لم يجدوا من يحركهم ركبوا إلى السكون والهدوء

أما العامل الثانى فكان فى صالح الحديبية بين المسلمين وقريش ، لأن أولئك المنافقين كانوا أيضاً يعملون لقريش فى المدينة ، فكانوا يتجسسون لها على المسلمين ، فيبلغونها أسرارهم السياسية والحربية ، ويجهدون فى تدبير المؤامرات وخلق المشاكل بين المسلمين ، تنفيذاً لرغباتها ، ومساعدة لها فى حربها .

فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هداً المنافقون ، لأن قريشاً انصرفت عن الحرب إلى السلم ، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التى عطلتها الحرب ، لتستعيد ما فقدته من أموال ، وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التى وقعت فيها باستمرارها فى الحرب تلك السنين الخمس ، وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام ، وهى أهم مواردها المالية ، فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ، ولم تعد محتاجة إلى تجسسهم لها ، ولا إلى ما يدبرونه من فتن ومؤامرات ، فسكتوا عما كانوا يدبرونه من ذلك . لأنهم كانوا آلات فى يد قريش أيضاً ، فلا يتحركون إلا إذا حركتهم ، ولا يمكنهم أن يقدموا على شيء من أنفسهم .

السياسة الخارجية من صلح الحديبية إلى فتح مكة

(١) بين المسلمين وقريش

نظر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة نظرة عامة فيما بين المسلمين وأعدائهم ، فوجد أنه صار أمام ثلاثة أقسام من الأعداء : قريش بمكة ، ويهود خيبر ، وقبائل البادية . ثم وجد أن قريشاً تعد واصلات حربه خمس سنين ، فلم تنل منه شيئاً ، بل كان هو الذي ينال منها ، فانتصر عليها انتصاراً عظيماً في غزوة بدر ، وقد حاولت أن تثار لنفسها منه في غزوة أحد وغزوة الأحزاب ، فارتدت في الغزوتين ولم تنل فيهما ما كانت تؤمل منهما ، وبقى المسلمون أقوياء يقطعون تجارتها إلى الشام ، فأنهكتها تلك الحرب المتواصلة ، وفقدت فيها من الأموال والرجال ما فقدت ، حتى وقعت في أعظم ضائقة شابتها في حياتها ، وقد أرادت أن تسلك طريق العراق في تجارتها إلى الشام ، بعد أن انتزع طريقها الذي يمر بالمدينة ، فأرسلت عيراً إلى الشام من طريق العراق ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستولت على هذه العير ، فتعطلت بهذا تجارتها ، وساءت حالها ، لأن هذه التجارة كانت أهم مورد لها . وقد انضم إلى هذا أن سرية للمسلمين أسرت ثمامة بن أثال وهي عائدة إلى المدينة ، وكان ثمامة من رؤساء بني حنيفة باليمامة ،

وكانت قريش تعتمد على اليمامة فيما تحتاج اليه من الحبوب ، فأكرم
النبي صلى الله عليه وسلم ثمامة وفكَّ أساره ، فلما رأى هذه المعاملة
الكريمة آمن به ، ثم رجع إلى بلاده فمر بمكة معتمراً ، وأعلن
فيها إسلامه ، فأرادت قريش أن تؤذيه ، ثم ذكرت حاجتها إلى
حبوب اليمامة فكففت عنه ، ولما كان حلفاء بعد أن فارق مكة إلا
يرسل إلى أهلها حبواً حتى يؤمنوا

فاستحكمت الضائقة بأهل مكة ، وأصابهم جسد وقحط
حتى صاروا يأكلون العسل ، وهو الوبر والدم . فلما سمعت حالهم
كتبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

« إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا »

ثم أرسلوا إليه أبا سفيان بن حرب برسالتهم ، فلما وصل إليه
قال له : يا محمد ، أنشدك الله والرحم ، قد أكلنا العليز

فكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة بن أثال أن يرسل
إليهم ما يحتاجون من الحبوب ، لأن الإسلام دين رأفة ورحمة ،
وليس من أصوله أن يلجئ الناس بمثل هذا إلى الإيمان به ، ولم
تكن سياسة النبي صلى الله عليه وسلم تقوم على الطمع والحقد ،
حتى تحمله على المضى في تجويع أهل مكة حتى يسلوا أو يهلكوا ،
كما تفعل السياسة الظالمة في عصرنا ، وإنما كانت سياسته تقوم على
حب الخير للناس في دنياهم وأخراهم ، فكان يشتد عليهم ثم يلين ،

ويقسو بهم ثم يرحمهم ، فكانت سياسته مع أنصاره وأعدائه تجرى على وتيرة واحدة : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . ثم نظر فوجد أن اليهود قد تجمعوا بخيبر يريدون الانقضاض عليه ، ويحتدون في تأليب القبائل البدوية على المسلمين ، وقد أعمتهم العداوة والحقد ، وملاً قلوبهم الغيظ والحسد .

فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم هذه النظرة العامة في أحوال أعدائه ، أراد أن يستغل ما أدرك قریشاً من الضعف في مصلحته ومصلحتهم ، لأنه كان يرجو الخير لهم ، ويطمع في إسلامهم ، فعزم على أن يقوم بعمل يؤدي بهم إلى المهادنة ، ليتفرغ لأولئك اليهود الذين أعماهم الحقد ، ولم يعتبروا بما حصل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .

لقد انتهت الفترة السابقة بعجز قریش عن متابعة حربها الهجومية للمسلمين ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم عقب غزوة الأحزاب : الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يسير إلى مكة غازياً كما ساروا إليه غازين ، لأنه وقد ظهرت قوته وظهر عجزهم أراد أن يبدأهم بالسلم ، كما بدأ عهده معهم بالسلم قبل الهجرة ، ليعان للناس أن دينه يسعى للسلم لا للحرب ، ولا يعتمد على القوة إذا توفرت له ، وظهر أمره فيها على أعدائه ، وليس له غرض دنيوى يحمله على

استغلال ضعف أعدائه ، ليذلهم ويستولى على بلادهم ، ويظهر
سلطانه وجبروته فيهم ، وإنما هو دين رحمة وهداية ، فلا تطغيه
القوة كما تطغى طلاب الدنيا والملك ، بل يعامل عدوه بالرأفة والرحمة
عند ضعفه ، ليحملة بالحسنى على الاهتداء بهديه ، وهذه هي غايته
التي يؤثرها على غيرها من الغايات ، ويضحي بكل غاية في سبيل
الوصول إليها

فأراد الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى مكة
معتصراً لا غازياً ، ليعلم للعرب أن دينه يحترم الكعبة كما يحترمونها ،
ولا ينسخ شيئاً من شعائرها الصحيحة التي كانوا يقومون بها ، فيقرب
بينه وبينهم ، ويزيل شيئاً من جفوتهم له ، فأراه الله تعالى في نومه
أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين مطمئنين رؤوسهم
ومقصرين ، فأخبر أصحابه برؤياه . وأمرهم أن يتجهزوا للعمرة ،
ليزوروا المسجد الحرام كما رأى في نومه ، ورؤيا الأنبياء حق ،
وليست كرؤيا غيرهم من الناس

وقد يقال إنه ليس من حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يقصد
المسجد الحرام للعمرة وهو في حالة حرب مع قريش ، فكيف
يقدم على هذه العمرة في تلك الحالة ؟ وكيف تمسك به قريش منها
وهو في حالة حرب معها ؟

والجواب أن المسجد الحرام بيت الله تعالى لا بيت قريش ،

فهو حق مشاع للناس جميعاً ، وللمسلمين فيه من الحق مثل ما لغيرهم ، وليس لقريش أن تمنعهم هذا الحق إذا أرادوا أن يصلوا إليه بالسلم ، ولا يستخدموا في الوصول إليه شيئاً من القوة ، وقد أمان النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد هذه العمرة أنه لا يريد حرب قريش ، وإنما يريد زيارة المسجد الحرام ، على أنه كان يريد أيضاً أن يتصل في هذه العمرة بقريش لمهادتها ، كما سيعلن هذا في خروجه إليها .

وقد خرج إلى هذه العمرة في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه ، وأم سكرامة من أزواجه ، وكان معهم كسبى كثير يسوقونه إلى فقراء أهل مكة ، ولا ينظرون إلى ماضيهم في عداوة الإسلام ، لأنهم يريدون أن ينسوا هذا الماضي بآثامه ، ويفتتحوا عهد سلام ووئام ، ولكن قريشا لم تقدر هذه النوايا الحسنة ، ولم تفقه هذه السياسة الجديدة التي يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلكها معها ، فلما وصل إلى عُسْتَفَّان — وهى على مرحلتين من مكة — بلغه أن قريشاً أجمعت على صدّه عن المسجد الحرام ، وأنها أرسلت خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لها .

فلما بلغه ذلك قال : يا وَيْحَ قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بينى وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابونى كان

ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهر الله عليهم دخولوا الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة .

ثم أمر أصحابه أن يعدلوا عن طريق خالد بن الوليد ، حتى لا تقع حرب بينه بينهم ، فتتبدد الغرض المقصود من هذه العمرة ، فساروا حتى أفضسوا إلى الحديبية^(١) فلما وصلوا إلى كثيفة المزار^(٢) بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فزجروها فلم تقم ، فقال : حبسها حابس الفيل^(٣) والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها صلة الرحم إلا أجهتكم إليها .

فأعلن سياسته السلمية الجديدة إعلاناً صريحاً ، والصراحة فى السياسة من أعظم وسائل نجاحها ، والوصول بها إلى الغرض المقصود منها ، وقد أعلنها إعلان القوى الكريمة الذى لا يريد إذلال خصمه فى ضعفه ، بل يريد أن ينسى ما كان بينهما من حرب وعداوة ، وأن يبقى على ما بينهما من رحم وقربة ،

(٢) هى بئر على مرحلة من مكة . سميت الأرض التى تقع فيها باسمها

(٢) هى مهبط الحديبية

(٣) يعنى فيل أهل الحبشة حين فصدوا مكة

لأن دينه يأمر بصلة الرحم ، ويؤثر دفع السيئة بالحسنة . والعفو عند القدرة .

ثم زجر الناقة فوثبت ، فسار حتى نزل بأقصى الحديبية ، فلما رأت قريش أنه عدل عن طريق خالد بن الوليد خففت شيئاً من ثورتها ، وأرسلت بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ليسأله عما يريد منها ، فأتى إليه بدیل بن ورقاء برسالة قريش ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بمقصده من العمرة ، وذكر له أن قريشاً قد نهكتها الحرب ، فإن شاءت وادعها مدة تترك الحرب تخلى بينه وبين الناس ، فقال له بدیل : سأبلغهم ذلك .

ثم رجع بدیل إلى قريش فأخبرهم بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم من موادعتهم ، فلم يقبلوا ما عرضه عليهم من المهادنة ، فقال لهم عروة بن مسعود الشقفسي : إنه قد عرض عليكم خطبة رشداً ، إقبلوها ودعوني آتة ، ثم سار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأى من إخلاص أصحابه له ما لم يره في حياته ، فرجع إلى قريش وقال لهم : والله يامعشر قريش ، جئت كسرى في ملكه ، وقبصر في عظمته ، فما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فانظروا رأيكم ، فإنه عرض عليكم رشداً ، قاقبلوا ما عرض عليكم فإنني لكم ناصح ، مع أني

أخاف ألا تنصروا عليه . فقالوا له : لا تتكلم بهذا ، ولكن نردّه عامنّا ، ويرجع إلى قابل :

ثم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم حليس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم حلفاء قريش ، وكانوا يعظمون هدى الكعبة ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يبعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فبعثوه في وجهه واستقبلوه يلبسون بالعمرة ، فلما رآهم حليس رجع إلى قريش فقال لهم : سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا ، أتجشّخنم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش ورب البيت ، إن القوم أتوا معتمرين . فقالوا له : اجلس ، إنما أنت أعرابي ، لا علم لك بالمكائد .

ثم رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم عثمان بن عفان يبلغهم مقصده ، فأبوا أن يجيبوه إليه ، ثم منعوا عثمان أن يرجع إلى الحديبية ، مع أنهم أرسلوا رسلاًهم قبله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يمنهم من الرجوع إليهم ، ولكنّه ضيق سياسة الشرك ، وسعة سياسة الإسلام .

وقد انتظر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع إليه عثمان فلم يرجع ، ثم أشيع بين أصحابه أن قريشا منعوه وقتلوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . بعد أن بلغ

في التمساح معهم ما بلغ ، ولسكن التمساح له حد ، فإذا جاوزه كان ضعفاً يضر ولا ينفع .

وكانت قريش قد أرسلت خمسين رجلاً ليطوفوا بهسكرك المسلمين ، لعلهم يصيبون غرةً منهم ، فأسرهم حراس المسلمين ، ثم جاء جمع منها وأخذوا يناوشون المسلمين ، فأسروا منهم اثني عشر رجلاً ، وقتل واحد من المسلمين .

فلما رأت قريش ذلك أدركها الخوف ، وأرسلت سهيل بن عمرو بشروطها للبوادعة التي يريد بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أربعة شروط :

(١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات .
(٢) من جاء المسلمين من قريش يرذونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده .

(٣) أن يرجع المسلمون من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخلون مكة بعد أن تخرج قريش منها ، ويقيمون بها ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح إلا السيف في الثقب والاب والقوس .

(٤) من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .
فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لينخبرهم بهذه الشروط ،

وذكر لهم أنه يرضى بها ، ولا شك أن في بعض هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يطاول قريشاً ، لأنه يطمع في إسلامهم ، وقد أدركهم الضعف والملل من الحرب ، والضعيف يشهد في شروطه إذا رأى سباحة من القوى ، ولكن هذه الشدة لا تفيد شيئاً ، ولا تنجيه من المصير الذي سينتهى إليه بعد أن أخذ أمره في الضعف ، فمن السياسة البارة أن يستهان معه ، وأن يستعان بالزمن على الوصول إلى الغرض المقصود منه ، وقريش هم قريش عمود العرب ، وأعظامهم رجالا ، وأقوامهم على حمل رسالة الإسلام ، فليتساهل معهم حتى يحين وقتهم ، ويمكن إدخالهم في الإسلام مع صون دماءهم .

ولكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يدركوا شيئاً من هذه الأهداف البعيدة لسياسته الجديدة مع قريش ، فدخلهم من تلك الشروط أمر عظيم ، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ؟ كيف نرد إليهم من جاءنا منهم مسلماً ؟ ولا يردون إلينا من جاءهم مرتداً . فقال لهم : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ونجراً (١) وكذلك

(١) وقد تحقق هذا بعد عقد الموقعة ، لأن الذين ردوهم النبي صلى الله عليه وسلم تجمهوا في طريق قريش إلى الشام ، وقطعوا عليها تجارتها . فطلبت من النبي صلى الله عليه وسلم إلغاء هذا الشرط

داخلهم أمر عظيم من الشرط الثالث ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين محتجبين رؤوسهم ومقتصرين ، وقد سأل عمر بن الخطاب أبا بكر في ذلك ، فقال له : وهل ذكر أنه في هذا العام ؟

ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه حتى قبلوا هذه الشروط ، وفي أنفسهم ما فيها منها ، لأنهم كانوا أقوياء ، وكانت قریش ضعيفة ، فلم يرضهم أن تتحكم في شروطها هذا التحكم ، وقد كتبت نسختان بهذه الشروط : نسخة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ونسخة لقریش ، وقد قام بكتابتها علي بن أبي طالب ، فأملأه النبي صلى الله عليه وسلم في افتتاحها — بسم الله الرحمن الرحيم — فقال سهيل بن عمرو : اكتب — باسمك اللهم — فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فكتبها ، ثم أملاه — هذا ما صالح عليه محمد رسول الله — فقال سهيل بن عمرو : لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك ، اكتب — محمد بن عبد الله — فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فكتبها .

وإنه لدرس عظيم في السياسة يلقيه النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين ، فقد أجاب سهيل بن عمرو إلى ما طالب من هذه الأمور الثانوية ، ولم يدعها تعوقه عن مقصده الأول من موادعة قریش ، وكثير من الناس تضيق سياستهم ، فيقفون عند هذه الأمور الثانوية ، ويضيعون في سبيلها غاياتهم ومقاصدهم ، وذلك من جمودهم

في سياستهم ، وتصحبهم فيها لأور لا يصح التعصب لها .
ولقد كسب النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السياسة الجديدة
أعظم مكسب ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت
تقودها لحربه ، وكانت تقف منها موقف الزعامة ، وقد أراد النبي
صلى الله عليه وسلم منها أن تخلى بينه وبين غيرها من العرب ، فمكنته
بهذه المواجهة بما أراد ، وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على
أوسع وجه ، فكان هذا فتحاً عظيماً في ميدان السياسة ، ومن الفتح
في السياسة ما يكون أعظم أثراً من الفتح في الحرب ، ولهذا نوّه القرآن
الكريم بهذا الفتح السياسي ، فقال تعالى في أول سورة الفتح (إِنَّمَا
فَتْحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

(٢) الآثار السياسية لصلح الحديبية

عادت قريش بعد صلح الحديبية إلى عزلتها ، وجمدت على
سياستها القديمة في الاهتمام بشؤونها الخاصة ، والعمل على إعادة تنظيم
تجارتها ، وإصلاح ما أفسده الحرب منها ، ولم تحاول أن تستفيد
من الشرط الرابع في ذلك الصلح ، وهو أن من أراد أن يدخل
في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في
عهد قريش دخل فيه ، فقد حصل عقيب عقد الصلح أن توثبت
بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش . وتوثبت بنو خزاعة

فقالوا : نحن في عقد محمد . وكانت القبيلتان تجاوران مكة ، وكان بينهما عداوة وتنازع قبل الإسلام ، فاكثفت قريش بدخول بني بكر في عقدها ، ولم تحاول أن تضم غيرها من القبائل إليها ، وهذا شأن كل من يحمى على القديم ، لا يتأثر بما يراه من الأحداث ، ولا يغير من أمره شيئاً يلائم ما يلابسه من الظروف والأحوال

أما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ عقب ذلك الصلح في نشاط عظيم في ميدان السياسة والحرب ، فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب ، وأخذ في تبليغها إلى ملوك الروم والفرس والحبشة وأمراء العرب وملوكهم في العراق والشام والبحرين واليمن ، ليعرف العرب مدى ما تطمح إليه الدعوة الإسلامية ، فتجذبهم إليها ، وتحميهم على الإيمان بها

ثم أخذ يضم إليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ، ولم يقتصر على قبيلة خزاعة التي انضمت إليه عقب ذلك الصلح ، كما اقتضت قريش على قبيلة بني بكر

ثم وجهه ضربة قاضية إلى ألد أعدائه في جزيرة العرب ، وهم اليهود خيبر ، وقد سبق أنهم كانوا أول من يُقصد بذلك الصلح .

(٣) بين المسلمين وباقي العرب

لقد استغل النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية في هذه الفترة خير استغلال بين القبائل العربية ، لأنهم أغضبهم أن تنفرد

قريش عنهم بذلك الصلح ، وهي التي جرتهم إلى حرب المسلمين ، وكانت تتولى زعامتهم في هذه الحرب ، فصرفوا أنفسهم عنها ، ولم تحاول قبيلة منهم أن تدخل في عهدها ، وقد كنت في عضدهم ما فعلته فريش ، فلم يمكنهم أن يؤلفوا حلفاً بينهم لحرب المسلمين ، كما كانوا يفعلون ذلك مع قريش قبل عقد ذلك الصلح .

فانتهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة ، وأخذ يضم إليه تلك القبائل واحدة بعد واحدة ، تارة باللين ، وتارة بالشدة ، فلم يمض سنيان على عقد ذلك الصلح حتى كان أكثر القبائل العربية قد دان للإسلام ، وانضم إلى المسلمين ، وقريش لا تزال في عزلتها ، ولا يزال جمهورها في الدين والسياسة يحجب عنها هذه الأحداث الخطيرة ، كأن الأمر في هذا كله لا يعنيها ، وكأن الصلح لم يكن محدوداً بأربع سنين ، ثم تعود حالة الحرب بينها وبين المسلمين إلى ما كانت عليه ، فتبطل تلك الهدنة التي استنامت لها ، وتعود إلى الحرب التي نسيتها .

ولعل قريشا أدركت عجز سياستها بعد ذلك الصلح ، ورأت أنها غلبت في ميدان السياسة كما غلبت في ميدان الحرب ، فرأت أن تترك أمورها تجري في مجاريها المقدرة لها كائنة ما كانت ، فقد غلبت على أمرها ، وليس لها إلا أن تستسلم لقضاء الله فيها .

ولعلها رأت أن تنتظر ما يؤول إليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم ،

فإن ظهر أمره دخلت فيه سليمة وافرة العدد ، وكفاها ماضيته
في حربه قبل غيرها من العرب ، وإن بطل أمره كفيت شره
ولم تضاف عدداً آخر إلى ما فقدته من رجالها وأموالها .

وستتبعين ضخامة عدد القبائل التي انضمت إلى المسلمين في هذه
الفترة في ضخامة الجيش الذي سيذهب إلى فتح مكة في الفترة الآتية .

(٤) بين المسلمين واليهود

كان لليهود جالية كبيرة بخيبر ، وهي واحدة كبيرة توجد على
مسافة ستة وتسعين ميلاً من المدينة إلى جهة الشام ، وقد لجأ إليها
فريق من يهود بني النضير وغيرهم بعد خروجهم من المدينة ،
واشتغلوا هم ويهود خيبر بتدبير المؤامرات للمسلمين ، وتحريض
القبائل العربية عليهم ، وقد توصلوا في الفترة السابقة إلى تدبير
مؤامرة الأحزاب فأخفقت ، فشرعوا في تدبير مؤامرة أخرى ،
وأخذوا يعقدون محادثات مع القبائل العربية لتنفيذ هذه المؤامرة ،
ومن القبائل التي دخلت في مؤامرتهم قبيلة سعد بن بكر بفدك ،
وهي قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر ، فقد أخذت
هذه القبيلة تجمع الجيش لمساعدة هؤلاء اليهود على حرب المسلمين ،
وكان هذا في مقابل تمر تأخذه من تمر خيبر ، فبلغ النبي صلى الله
عليه وسلم ما تفعله ، فأرسل إليها سرية أوقعت بها ، وغنمت
منها غنائم كثيرة .

وكان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق سيد يهود خيبر ، وكان هو الذى يحرضهم على حرب المسلمين ، وكان يلقب بتاجر أهل الحجاز ، لما له من المهارة فى التجارة ، وكان له ثروة طائلة يقلب بها اليهود كما يريد ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم خمسة من رجال الخزرج فقتلوه غيلة ، فولى اليهود مكانه أسير بن رزام ، فقال لهم : سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلى ، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه . ثم أخذ يسعى فى حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة فى ثلاثين من الأنصار ليستميلوه ، فساروا إليه واستمالوه إلى صلح النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وخرج فى ثلاثين من اليهود إلى المدينة ليعقد هذا الصلح ، وكان يقوم على أساس أن يسالم النبي صلى الله عليه وسلم ، فيؤليه على يهود خيبر ، ولكنه ندم فى طريقه على قبول هذا الصلح ، لأنه يجعله تابعاً للمسلمين ، وأراد الغدر بعبد الله بن رواحة وأصحابه ، فأهوى بيده إلى سيف عبد الله ، فقال له : أغدرا ياعبدو الله ؟ ثم نزل فضربه بالسيف فقتله ، وقام إخوانه من المسلمين على باقى اليهود فقتلواهم .

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء اليهود ماضون فى عداوتهم سعى إلى عقد صلح الخُدَيْيَّة مع قريش فى السنة السادسة من الهجرة ، ثم سار إلى يهود خيبر فى السنة السابعة

سبها ، وكان هذا في شهر المحرم ، فافتتح حصونهم حصناً بعد حصن ،
وقد سألوه الصلح على أن يخرجوا من أرض خيبر لا يصطحب
أحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره ، فصالحهم على أن يدفع
لهم أرضهم ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع ،
وقال لهم : إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

ثم أرسل بعد فتح خيبر إلى يهود قَدَاك ، فصالحوه على أن
يحقن دماءهم ويتركوا أموالهم ، ولما بلغ يهود تيماء ^(١) ما فعله
المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ، ومكثوا في بلادهم
ولم يخرجوا منها ، ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود وادي
القُرى ، فصالحهم على أن تبقى أرضهم بأيديهم يزرعونها بشطر
ما يخرج منها .

وهكذا انتهى أمر يهود الحجاز ، وقد أراد النبي صلى الله
عليه وسلم أن يجعله وطناً لهم وللمسلمين ، لهم فيه ما لهم ، وعليهم فيه
ما عليهم ، فأبوا إلا أن يكيدوا للمسلمين وهم أصحاب الوطن ، وقد
تمادوا في كيدهم حتى انتهى بهم إلى هذه النهاية ، وكان خيراً لهم لو
قبِلوا ذلك العرض الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنخلصوا
للعقد الذي أخذ به عليهم ، وساسكوا في معاملتهم للعرب سياسة

(١) قرية على ثمانى مراحل من المدينة

جديدة تلائم النهضة التي صاروا إليها بالإسلام ، ولم يحمّدوا على سياستهم القديمة القائمة على أساس الطمع في العرب ، واستغلال ما كانوا فيه من تفرق وتقهقر .

(٥) مكاتبة الملوك والأمراء

كانت هناك دولتان تجاوران المسلمين في هذه الفترة : دولة الفُرس بالشرق ، ودولة الروم بالغرب ، وكانت هناك إمارات عربية تابعة لهاتين الدولتين في العراق والشام واليمن ، وكان بين الدولتين حروب لا تكاد تنقطع ، والعرب بينهم ما فريق مع الفرس ، وفريق مع الروم ، ولم يكن لهم في هذه الحروب ناقة ولا جمل ، وإنما كانوا يساقون إليها سوقا ، وقد انتصر الفرس على الروم في سنة ٦٢١ م ، واستولوا على الشام ومصر وآسيا الصغرى ، وكادوا يستولون على مدينة القسطنطينية ، وكان هذا قبل الهجرة إلى المدينة ، ثم ظهر هِر قُل ملك الروم فنهض بهم ، وحارب الفرس حتى هزمهم ، واستولى على كثير من بلادهم ، وقد قامت بينهم موقعة عظيمة في مدينة نينوى سنة ٦٢٦ م ، فانتصر فيها هرقل على الفرس انتصارا عظيما ، وقد فرَّ كسرى ملك الفرس إلى عاصمة ملكه ، فقام عليه ابنه شيرويه فقتله ، وتولى الملك بعده ، وعقد صلحا مع ملك الروم على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه من قبل ، وكان عقد الصلح في السنة التي عقد فيها صلح التحديبية .

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ دعوته لهذه الدول التي
تتطاحن على الملك ، وتصبغ وجه الأرض بالسماء حبا في السيادة ،
وليس لها من غاية سامية تحارب من أجلها ، أو رسالة شريفة تحاول
تحقيقها في الأرض ، فأراد هو أن يبلغهم هذه الرسالة الشريفة
التي تقضى على هذه الحروب الآثمة ، وتصير بالعالم إلى عهد كله سلام
وأمن ، يتعاون الناس فيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
ويعيش الضعيف فيه آمنا بجانب القوى ، فلا طمع ولا تسلط
ولا سيادة ، ولا غير هذا من أمور الدنيا التي تقيم الحروب فيها ،
وتسكنر صفاء عيشها .

فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتجه هذا الاتجاه في هذه
الفترة ، وأن يكتب بدعوته أولئك الملوك والأمراء ، قيل له إنهم
لا يقرءون الكتاب إلا إذا كان مختوما . فاتخذ له خاتما من فضة ،
وكان نقشه هكذا :

محمد

رسول

الله

ثلاثة أسطر ، كل كلمة في سطر ، وقد مكث ذلك الخاتم في يده
إلى وفاته ، ثم في يد أبي بكر مدة خلافته ، ثم في يد عمر مدة خلافته ،
ثم في يد عثمان إلى أن وقع منه في بئر أريس في السنة التي قتل فيها ،
وقد التمسوه فيها ثلاثة أيام فلم يجدوه .

(٦) مكاتبة أمراء العرب

كانت إمارات العرب في هذه الفترة موجودة بأطراف الجزيرة العربية ، وكان بعضها بالشمال ، وبعضها بالجنوب ، فأما التي بالشمال فكان منها إمارة دمشق ، وكان أميرها الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان منها إمارة بَصْرَى ، وهي قرية على حدود بلاد العرب والشام ، وكانت الإمارتان تابعتين لدولة الروم ، وتدينان بالنصرانية مثلهم . وأما التي بالجنوب فكان منها إمارة البحرين ، وكان أميرها المنذر بن ساوى ، وكانت تدين بالمجوسية ، وهي ديانة الفرس المجاورين لهم ، وكان منها إمارة عُصَمَان ، وكان يتولى أمرها جيفر وعبد ابنها الجندى ، وكان منها إمارة اليمامة ، وكان أميرها هَوْذَة بن عليّ الحنفي .

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر هذا الكتاب مع شجاع بن وهب :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلامٌ على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك .

فسار شجاع بن وهب بالكتاب إلى أن وصل به إلى الحارث بن أبي شمر ، فلما قرأه رمى به الأرض ، ثم قال : من ينزع ملكي مني ؟ ثم أخذ يعدُّ جيشاً ليرسله إلى حرب المسلمين ، وقال لشجاع

ابن وهب : أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل إلى هرقل ملك الروم يستأذنه فيما أراد من الحرب ، فمنعه عما أراد ، وأمره أن يهيء له بايليّا^(١) ما يازم لزيارته لها ، وكان قد نذر زيارتها بعد انتصاره على الفُرس ، فصرف الحارث شجاع بن وهب بالحسنى ، ووصله بشفقة وكسوة .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزع منه ملكه كما أخطأ في فهم كتابه ، وإنما أراد أن يشبته ويقويه بالإسلام ، لأنه لم يكن له إلا ملك صوري ، وكان في الحقيقة تابعا لدولة الروم ، فإذا أسلم انقطعت صلته بهم ، وصار له ملك حقيقى لا صورى ، ولكنه أبى أن يسلم وأراد حرب المسلمين ، فكان ما كان من زوال ملك الغساسنة بعد ظهور الإسلام بالشام .

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتابا إلى أمير بُصْرَى مع الحارث بن عُمير الأزدي ، فسار به عمير حتى وصل مؤتة^(٢) فلقية شرحبيل بن عمرو الغساني ، فقال له : لعلك من رسل محمد ؟ فقال له الحارث : نعم . فأمر به شرحبيل فقتل ، مع أنه لا يصح قتل الرسول في شريعة من الشرائع .

(١) هى بيت المقدس .

(٢) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام

ولقد أساءت إمارتا دمشق وبصرى إلى الإسلام ، وآثرنا
أن تسيرا في ركب السياسة الرومية ، لتسوقهما سوقا في حروبها
التي تواصلها في سبيل سيادتها ، وليس لها فيها ناقة ولا جمل ، فلم
تفهما ما يريد الإسلام من الخير لها وللإنسانية عامة ، وأنه لا يسوقهما
إلى حرب آثمة كتلك الحروب التي يساقان إليها ، وإنما يريد أن
يسالهما ويبالغهما دعوته ، فإن شاءا أسلمتا ، وإن شاءا بقيا على
دينهما ، وعاشا معه في سلام وأمن

وقد اضطررنا بفعلهما النبي صلى الله عليه وسلم أن يبادلها حرباً
بحرب ، فأرسل في السنة الثامنة من الهجرة سرية بقيادة زيد بن
حارثة ، لتقتصم عن قتل الحارث بن عمير الأزدي ، وكانت تبلغ
ثلاثة آلاف رجل ، فلما وصلت مؤتة وجدت جموعاً تبلغ أضعافها
من الروم والعرب الخاضعين لهم ، فتغلبوا عليها بكمثرتهم ، وقتلوا
أميرها زيد بن حارثة ، فقام بأمرها بعده جعفر بن أبي طالب ،
فقتلوه أيضاً ، فقام بأمرها بعده عبد الله بن رواحة فقتلوه أيضاً ،
واستشهد منها عدد كثير ، وقد قام خالد بن الوليد بعد هذا بأمرها ،
فأمكنه أن ينقذ من القتل من بقي منها ، وقد تضاعف بهذا ذنب
الإمارتين للإسلام ، فأجأناه إلى مواصلة حربهما إلى أن يقتص
لقتلاه منهما .

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جَيْشَفَر وعبد ابنى الجبلندى
هذا الكتاب مع عمرو بن العاص :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى جَيْشَفَر
وعبد ابنى الجبلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى
أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلمها تسليماً ، فإنى رسول الله إلى الناس
كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن
أقرتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل ، وخيلي
نحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما ، والسلام »

والناظر فى هذا الكتاب يرى فيه تهديداً باستعمال القوة فى
الدعوة ، مع أن الإسلام يقوم على الدعوة بالحكمة والموعظة
الحسنة ، ولعل السبب فى هذا أن تلك الإمارات كانت تساعد
القبائل العربية المحاربة للمسلمين ، لأن بلادها كانت ذات زرع
وخصب ، فكانت تمد هذه القبائل بحبوبها وأسلحتها ، فتساعدها
على المضى فى حرب المسلمين ، وقد سبق أن قرشنا حينما قطعت
عنها حبوب اليمامة ساء حالها ، وظهر العجز والضعف عليها ، مع
أن قریشاً كانت أحسن حالا من هذه القبائل ، فاعتمدها على
تلك الإمارات هو الذى كان يساعدها على المضى فى الحرب ، ولا
فرق فى هذا بين الإمارات الجنوبية والإمارات الشمالية ، فأراد
النبي صلى الله عليه وسلم أن يقف منها موقفاً حاسماً ، فإما أن تكون

له ، وإما أن تكون عليه ، ليصل إلى أمر حاسم في هذه القبائل التي تعتمد عليها في حربها .

فسار عمرو بن العاص بذلك الكتاب حتى وصل إلى جيفر وعبد ملكي عَمَّان ، فسأله عبد عما يأمر به محمد وينهى عنه ، فقال له عمرو : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب

فقال عبد : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ! ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولسكن أخي أرضاً بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً . فقال له عمرو : إن أسلم أخوك ملكه رسول الله على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم .

فقال عبد : إن هذا الخلق حسن .

ثم أوصل عبد عمرا إلى أخيه جيفر ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأسلم أخوه عبد ، ومكنا عمرا من الصدقات ، فمكت بهان إلى أن توفي النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى هذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي :

« بسم الله الرحمن الرحيم — سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله

الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم ، له ذمة الله ، و ذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية ، ففسار العلماء بهذا الكتاب إلى المنذر حتى وصل إليه ، فقال له : يا منذر ، إنك عظيم العقل في الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة ، إن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكرم عن أكله ، ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ، ولست بقديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه؟ ولمن لا يخون ألا تأمنه؟ ولمن لا يخلف ألا تشق به؟ فإن كان هذا ممكنا فهذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليت زاده في عفوه أو نقص من عقابه ، إذ كل ذلك منه على أمنيته أهل العقل ، وفكر أهل النظر .

ولقد دعا العالم فأحسن الدعوة ، وسلك إليها أحسن الوسائل ، إذ خاطب عقل المنذر ، وعرض عليه أحسن ما يدعو الإسلام إليه ، فاجابه إلى الإسلام ، وبقي على ملكه إلى أن مات قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى هود بن علي هذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامري :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى هوزة
ابن علي ، سلام علي من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى
مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْخَافِ ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا ، وَأَجْهَلُ لَكَ
مَا تَحْتَ يَدَيْكَ . »

فسار سايط بهذا الكتاب حتى وصل إلى هوزة بن علي ، فلما
قرأه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

« ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ! وأنا شاعر قومي وخطيبهم ،
والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بمض الأمر أتبعك ، »

فلم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المساومة ، لأنه لا يريد
بدعوته ملكا يساوم فيه ، وإنما يريد به هداية الناس ، فمن شاء قبل
هدايته من غير مساومة ، ليكون إيمانه خالصاً لله تعالى ، ولهذا
قال حين قرأ كتابه : لو سألتني قطعة من الأرض مافعات ، باد
وباد ما في يديه . وهذا مع أنه أبقى غيره من أمراء العرب على
ملكهم بعد إسلامهم ، لأنهم أسلموا إسلاماً خالصاً لله تعالى ،
فلم يلبث هوزة أن مات مُنْتَهَرَفَ النبي صلى الله عليه وسلم
من فتح مكة ، وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة .

(٧) مكاتبة ملك الحبشة

اتصل المسلمون بالحبشة قبل الهجرة إلى المدينة ، فهاجر كثير منهم إليها ، فلما هاجروا إلى المدينة انتقل بعض مهاجري الحبشة إليها ، وبقى بعضهم فيها ، وكان قد مضى على من بقي فيها إلى هذه الفترة نحو من عشر سنين ، وقد سبق أنه كان على الحبشة في ابتداء الهجرة إليها نجاشي يقال له أصحمة ، وأنه أكرم أولئك المهاجرين ، ولم يجب قريشا إلى طردهم من بلاده .

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب في هذه الفترة إلى ملك الحبشة ، كما كتب إلى غيره من الملوك والأمراء ، وقد اختلف في النجاشي الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ف قيل إنه النجاشي أصحمة السابق ، وقيل إنه نجاشي آخر تولى الحبشة بعده ، فمن ذهب إلى أنه هو النجاشي أصحمة ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إليه هذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضممرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحمة ملك الحبشة ، سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحمينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله

وحسبه لا شريك له ، والموا الإاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن
بالذى جاعنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله
عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام
على من اتبع الهدى »

فكتب إليه النجاشى أصحمة هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم — إلى محمد رسول الله من النجاشى
الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركات الله الذى
لا إله إلا هو الذى هدى إلى الإسلام ، أما بعد ، فقد بلغنى كتابك
يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فرب السما والأرض
إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، فأشهد
أنك رسول الله صادقاً مقصداً »

ثم قال النجاشى لعمره : إني أعلم والله أن عيسى بشربه ،
ولكن أعوانى بالحبشة قليل ، فأظننى حتى أكثر الأعوان ،
وألين القلوب . وكان مما أرسل إليه عمرو أن يرجع بمن بقى من
مهاجرى الحبشة ، فرجع بهم إلى المدينة ، وكان هذا فى السنة
السابعة من الهجرة .

ومن ذهب إلى أن النجاشى الذى كان على الحبشة فى هذه
الفترة كان غير النجاشى أصحمة ذكر أن النبي صل الله عليه وسلم
أرسل إليه هذا الكتاب :

« هذا كتاب من النبي محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسوله ، فأسلم تسليماً ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ، فإن أبيت فعليكم عثم النصاري من قَوْمك »

فإذا صح أن النجاشي الذي أرسل إليه هذا الكتاب غير النجاشي السابق ، فإنه يكون لفظ الأصحم مُتَّحِماً في هذا الكتاب من بعض الرواة ، لأن الأصحم هو النجاشي السابق لا هذا النجاشي . وقد أنكر بعض علماء أوربا ما ورد من إسلام النجاشي ، ولعل حجتهم في هذا أنه لم يرد في تاريخ الحبشة ، ولكن هذا لا يصلح حجة لهم ، ولا يصح أن يظمن به فيما ورد من إسلام ذلك النجاشي ، لأنه كان يكتن إسلامه عن قومه كما أتى في هذه الرواية ، فلا يمكن أن يرد إسلامه في تاريخ الحبشة ، لأنه كان سرا بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن بانخته وفاته ، فجمع أصحابه وقال لهم : قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة ، فقوموا فصموا . فقال بعضهم :

يَأْمُرُنَا أَنْ نَهْضِيَ عَلَى عِلَاجٍ مِنَ الْحَبْشَةِ ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَإِنْ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) الْآيَةُ — ١٩٩ — مِنْ سُورَةِ
آلِ عِمْرَانَ .

وقد جاء في كتاب حياة محمد لايرفنج أن نجاشي الحبشة كان
مسيحياً نسطورياً ، ومنه ذهب نسطور يقوم على التوحيد وإنكار
الروحية المسيح ، ومما جاء عنه في هذا : لا تقولوا مريم أم الله ،
لأنها من البشر ، ويستحيل أن يولد الإله من البشر . ولا شك أن
هذا يقرب رواية إسلام النجاشي ، كما يقربه ما لقيه المهاجرون إلى
الحبشة من الإكرام عنده .

(٨) مكاتبة ملك الروم

كان هرقل على الروم في هذه الفترة ، وكان قد انتهر على
القسطنطين في موقعة نينوى سنة ٦٢٦ م ، ونذر أن يزور إيليا
(بيت المقدس) ماشياً ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم هذا
الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ — مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ
عَظِيمِ الرُّومِ ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ ، أَسَلِّمُ تَسْلِمًا ،

أَسْلَمَ يَوْمَ تِلْكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، وَإِنْ تَتَوَلَّ فَإِنْ إِثْمَ الْأَكْثَارِينَ (١)
عَلَيْكَ ، .

فسار دحية بهذا الكتاب حتى وصل إلى أمير بُصْرَى ، فأرسل
أمير بصرى معه عدىَّ بن حاتم الطائى ليوصله إلى هرقل ، وكان
لا يزال بالشام فى تلك الزيارة ، فقابلاه بحِمَصٍ ، ودفع دحية إليه
كتاب النبى صلى الله عليه وسلم .

فجمع هرقل عظماء الروم وقال لهم : يامعشر الروم ، هل لكم
فى الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم ؟ فتتابعوا هذا النبى ؟
فلما سمعوا هذا منه حاصروا خيصة سحر الوحش إلى الأبواب
فوجدوها مغلقة ، فرجعوا إليه وقالوا له : أتدعوننا أن نترك
النصرانية ونصير عبيدا للأعرابي ؟

فلما رأى هرقل ما حصل منهم قال لهم : إني قلت مقالتي أختبر
بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيته . فسجدوا له ورضوا عنه ،
ولكنه ردَّ دحية ردًّا جميلاً .

وإني أرى أن هرقل كان صادقاً فى نصيحته لعظماء الروم ،
ولم يكن يريد بها اختبار شدتهم فى دينهم كما أظهر لهم ، وقد أيدت
الأيام صدق هذه النصيحة ، فزال ملك الروم من الشام بعد بضع
سنين منها ، ثم أخذ المسلمون ينتقصون منه إلى أن استولوا على

القسطنطينية عاصمة ملكهم ، وتوغلوا في أوربا إلى أن وصلوا إلى أسوار فينسا عاصمة النمسا .

ولقد كانت الحوادث الماضية تؤدي أيضاً بهرقل إلى أن يقف هذا الموقف من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان في صف الروم في حربهم مع الفرس ، وكانت قريش في صف الفرس في هذه الحرب ، فكان يرى أن الروم نصارى أهل كتاب ، وأنهم أقرب إليه من الفرس ، فلما انتصر الفرس على الروم سنة ٦٢١ م وكان هذا قبل الهجرة بسنة ، حزن المسلمون لانهازم الروم ، وفرحت قريش بانتصار الفرس ، فأنزل الله تعالى أول سورة الروم لتسليمة المسلمين ، ووعدهم بانتصار الروم على الفرس في بضعة سنين (ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفيلبون ، في بضعة سنين لله الأمر من قبل ومن بعد يومئذ يفرج المؤمنون ينتصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فلما نزلت هذه الآيات خرج أبو بكر إلى قريش فقال لهم : فرحتم بظهور إخوانكم ، فلا تفرحوا ، فوالله ليظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقام إليه أنس بن مالك فقال : كذبت .

فقال أبو بكر له : أنت أكذب يا عدو الله ، إجعل بيننا أجلا

أراهناك عليه . ففراهننا على عشر قلائص ، إذا ظهرت فارس على الروم غرمها أبو بكر ، وإذا ظهرت الروم على فارس غرمها أبي ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل ، فقال له : ما هكذا ذكرت ، إنما البضع بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر ، ومادده في الأجل .

فخرج أبو بكر فلتقى أبا فقال له : لعلك ندمت . فقال أبي : لا ، فتعال أزايدك في الخطر ، وأمادك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين . فقال أبو بكر : قد فعلت . فلما أخذ المسلمون يهاجرون إلى المدينة أتى أبي أبا بكر فلزمه ، لأنه خاف أن يهاجر إلى المدينة قبل حلول الأجل ، وقد قال له : إني أخاف أن تخرج من مكة ، فأقم لي ضامناً كفيلاً . فأقام أبو بكر ابنه عبد الله كفيلاً عنه .

فلما أراد أبي أن يخرج إلى غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه ، لأنه خاف أن يقتل فيها ، وقد قال له : والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً . فأعطاه كفيلاً عنه قبل أن يخرج إلى هذه الغزوة ، ثم خرج إليها فأصيب فيها بجراحات مات بها بعد رجوعه إلى مكة .

ثم كان بعد هذا أن تولى هرقل على الروم ، فظهر بهم على الفرس ، وانتصر عليهم في موقعة نينوى سنة ٦٢٦ م نصر حاسماً ،

فتحققت بهذا نبوءة القرآن للروم ، وكان هذا على يد هرقل الذي ملك عليهم بعد هزيمتهم ، وقد أتاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يفي بنذره على هذا النصر بزيارة بيت المقدس

وليس هناك ما يمنع أن يكون هرقل قد علم بما كان من المسلمين من ميلهم إلى صف الروم ، وبما كان من نبوءة القرآن بنصرهم على الفرس قبل وقوعه ببضع سنين ، ولا بد أن يكون لهذا أثر كبير في نفسه ، لأنه القائد الذي كسب هذا النصر العظيم ، فكيف لا يقدر من تنبأ له به ، وكيف لا يقدر كتابه إليه ؟ وكيف لا يصدق ما تنبأ فيه لدينه ، وقد صدقت نبوءته في نصره ، ورأى صدقها بعينه ولسكنه لما رأى ما حصل من عطاء الروم اكتفى بأن ردّ دحية رداً جميلاً ، ثم نهى الحارث بن أبي شمس أن يقوم بحرب المسلمين كما سبق ، ولم يفعل ما فعله كسرى ملك الفرس فيما يأتي .

(٩) مكاتبة أمير مصر

كانت مصر في هذه الفترة تابعة لدولة الروم ، وكان أميرها يسمى عند العرب باسم المقوقس ، وقد أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت

فإنما عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء
بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا
بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »
فسار حاطب بهذا الكتاب إلى أن أوصله إلى المقوقس
بالإسكندرية ، فلما قرأه قال لحاطب : ما منعك إن كان نبياً أن
يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال له حاطب : ألسنت
تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه
فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه
الله إليه ؟ فقال له المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من
عند حكيم .

ثم قال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدت
أنه لا يأمر بمن هو دفيه ، ولا ينهى عن من غوب فيه ، ولم أجده
بالساحر الضال ، ولا بالكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة :
إخراج الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى .

ثم أجاب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ،
أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وتدعو إليه ،
وقد علمت أن نبياً قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد
أكرمت رسولك ، وبعثت لك بحاريتين لهما مكان عظيم في القبط ،

وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركيها ، والسلام ،
وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية التي تسرى بها النبي
صلى الله عليه وسلم ، وولدت له ابنه إبراهيم ، والأخرى أعطاهما
الحسان بن ثابت الأنصاري .

وبهذا سلك المقوقس مع النبي صلى الله عليه وسلم مسلك هرقل
ملك الروم ، فلم يسلم ، ولكن رد رسوله رداً جميلاً ، والناس
على دين ملوكهم ، ولعله فعل هذا بأمر من هرقل
(١٠) مكاتبة ملك الفرس

كان ملك الفرس في هذه الفترة يسمى أبرويز ، ولقبه كسرى ،
وهو لقب ملك الفرس ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه
هذا الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى كسرى
عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ،
وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر
من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن
أبيت فعليك إثم المجوس . »

فسار عبد الله بن حذافة بهذا الكتاب حتى أوصله إلى كسرى
أبرويز ، وكان الفرس في هذه الفترة قد أصابهم الوهن والضعف
بعد انتصار الروم عليهم ، وكان لهذا أثره في ضيق صدر أبرويز ،

فُضِّلَ أَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْتَهَزَ فُرْصَةً مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ ،
وَهَذَا إِلَى أَنَّهُ كَانَ فِي غَيْرِ صَفِّ الْفَرَسِ مِنْ يَوْمِ بَعَثْتَهُ ، فَكَانَ فِي
صَفِّ الْعَرَبِ حِينَ حَارَبُوا الْفَرَسَ فِي يَوْمِ ذِي قَارِ (١) ، فَلَمَّا انْتَصَرَ
الْعَرَبُ فِيهِ عَلَى الْفَرَسِ قَالَ : إِنَّ هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَفْتُ فِيهِ الْعَرَبُ
مِنَ الْعَجَمِ ، وَبِىْ نَصْرُوا . وَكَانَ فِي صَفِّ الرُّومِ حِينَ حَارَبُوا الْفَرَسَ ،
حَتَّى حَزَنَ وَحَزَنَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ حِينَ انْتَصَرَ الْفَرَسُ عَلَى الرُّومِ ،
وَنَزَلَ قُرْآنُ يَعِدُ الْمُسْلِمِينَ بِانْتِصَارِ الرُّومِ عَلَيْهِمْ ، كَمَا سَبَقَ فِي مَكَاتِبَةٍ
مَلِكِ الرُّومِ ، وَهَذَا أَيْضاً إِلَى بَعْدِ مَا بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَجُوسِيَّةِ ، لِأَنَّ
الْمَجُوسِيَّةَ تَقُومُ عَلَى عِبَادَةِ النَّارِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى مَلُوكِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ آلِهَةٌ ،
وَإِلَى مَا كَانَ مِنْ احْتِقَارِ الْفَرَسِ لِلْعَرَبِ ، وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ شَعْبٌ
دُونَ سَائِرِ الشُّعُوبِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ كَانَ لَهُ أَثَرُهُ فِي نَفْسِ كَسْرَى أَبَرْوِيزَ حِينَ
قَرَأَ ذَلِكَ الْكِتَابَ ، فَبَلَغَ بِهِ الْغَضَبُ مَبْلَغَهُ ، وَمَزَّقَ الْكِتَابَ ،
وَكَتَبَ إِلَى بَاذَانَ عَامِلِهِ بِالْمِينَ : أَنَّ أُبَيْعَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي
بِالْحِجَازِ رَجُلَيْنِ مِنْ عِنْدِكَ جَلِيدَيْنِ ، فَلْيَأْتِيَانِي بِهِ . فَلَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَزَّقَ كِتَابَهُ قَالَ : مَزَّقَ اللَّهُ مَلِكَهُ كُلَّ مَزَّقٍ .
ثُمَّ إِنَّ بَاذَانَ أَرْسَلَ قَهْرْمَانَهُ بَابَوَيْنَهُ وَرَجُلَا آخَرَ إِلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ أَتَاهُ كِتَابُ كَسْرَى أَبَرْوِيزَ ، يَأْمُرُهُ أَنْ

(١) اسم لواء قريب من البصرة .

ينصرف معهما إليه ، فلما وصلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له بابويه : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتتطلق معي ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكف عنه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك .

وكانا قد دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لهما ، وأعطيهما شواربهما ، ففكره النظر إليهما ، ولما سمع من بابويه ما سبق قال لهما : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قال : ربنا — يعنيان كسرى أبرويز — فقال لهما : لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي . ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيا غدا .

فرجعا إلى الغد ، وكان الله قد سلط على كسرى أبرويز ابنه شيرويه فقتله ، وأوحى بهذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا بابويه وصاحبه وأخبرهما بقتل أبرويز ، فقالا له : هل تدري ما تقول ؟ إننا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ فقال لهما : نعم ، أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهى إلى منتهى الخف والخافر ، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء ^(١) .

(١) الأبناء قوم من الفرس سكنوا اليمن .

نخرج بابويه وصاحبه حتى قدما على باذان بالين ، فأخبراه
بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : والله ما هذا بكلام ملك ،
وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول ، ولننظرنَّ ما قد قال ، فلئن كان
هذا حقا إنه لنبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

ولم يلبث باذان أن قدم عليه هذا الكتاب من شيرويه :
« أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبا لفارس ،
لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم ، وتجميرهم فى ثغورهم ، فإذا
جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة من قبلك ، وانظر الرجل الذى كان
كسرى كتب فيه اليك ، فلا تهجه حتى يأتىك أمرى فيه .

فلما قرأ باذان هذا الكتاب قال : إن هذا الرجل لرسول .
ثم أسلم وأسلم معه الأبناء من فارس ، وأرسل بطاعته وطاعة من
معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه أول ثلاثة من المسلمين
فى ملك كسرى ، تحقيقا لنبوذة النبي صلى الله عليه وسلم .

(١١) أثر مكاتبة الملوك والأمراء

لقد نجحت هذه المكاتبات فى جعلتها نجاحا باهرا ، فبلغ النبي
صلى الله عليه وسلم رسالته العامة إلى دولتى الفرس والروم ، وهما
الدولتان اللتان كانتا تحكان أكثر المعمور فى ذلك الوقت ،
واستجاب لدعوته بعض الملوك والأمراء ، ومن لم يجب دعوته
رد رسله ردا جميلا ، وقد دخل بهذه المكاتبات فى دعوته ثلاثة

أقطار من جزيرة العرب: وهى قطر عَمَّان والبحرين واليمن ، وهذه الأقطار تمتاز بالخصب والثروة فى هذه الجزيرة ، فكان استجابتها للنبي صلى الله عليه وسلم نجاحا عظيما للإسلام ، وزيادة لها شأنها فى قوته وانتشاره .

وقد كان لهذا النجاح العظيم أثر كبير فى نفوس من كان يناوى الإسلام من قبائل العرب ، فلا بُدَّ أنهم أخذوا يوازنون بين موقفهم العداوى للإسلام ، وموقف أولئك الملوك والأمراء ، وهم أقوى منهم سلطانا ، وأرجح عقلا ، وأحسن رأيا ، وأحكم سياسة ، فأخذوا يحاسبون أنفسهم على ذلك الموقف العداوى ، ويعيدون النظر فيما جرَّته عليهم تلك الحروب من ضياع الأنفس ، وضياع الأموال ، واضطراب الأحوال ، تخلف هذا من عداة بعضهم للإسلام ، وأدَّى ببعضهم إلى الدخول فيه طوعا واختيارا ، كما دخل فيه العقلاء من أمرائهم .

وبهذا كانت هذه المسكاتبات حركة سياسية مباركة ، وكان لها اثر بعيد فى جزيرة العرب ، يضاهى الأثر الذى حدث من انتهاء أمر اليهود فى الحجاز ، والقضاء على مؤامراتهم بين قبائل العرب ، ويمتاز عليه بأنه حدث بطرق سلمية هادئة ، لم ترق فيها دماء ، ولم تذهب فيها أموال ، وكلاهما تم فى هذه الفترة التى تضاعفت بركايتها

على الاسلام ، ومهدت لما سيظهر في الفترة الآتية من الحوادث الخطيرة في امر هذا الدين .

ولاشك أن كل هذا كان نتيجة لذلك الصلاح المبارك الذي عقد في الحُدَيْبِيَّة بين المسلمين وقريش ، فما كان أبركه من صلاح ، وما كان أجمل أثره في نجاح أمر الاسلام ، وما كان أبعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم في قبوله ، على ما كان في بعض شروطه من قسوة على المسلمين .

السياسة الداخلية من فتح مكة إلى الوفاة

(١) بين المسلمين والمنافقين

تمتد هذه الفترة من فتح مكة إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وكانت وفاته في السنة العاشرة منها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فيما سبق يعهد إلى مطاولة المنافقين وملايتهم ، فيغضي عن سيئاتهم ، ويعفو عن زلاتهم ، وقد كانت المصلحة السياسية فيما سبق تقتضي أخذهم بالمطاولة والملاينة ، وفي هذا شيء من الضعف الذي يجب أن يكون له حد ، ليقلع كل من يظهر الاسلام عن هذه الخصلة المرذولة ، ويأخذ بالصراحة في دينه ، فإما أن يكون مسلماً مخلصاً في إيمانه ، وإما أن يكون كافراً مخلصاً في كفره ، ولا يصح أن يتقبل في الاسلام ذبذبة النفاق وريأؤه ، ولا يصح أن يحسب عليه أشباه الرجال من المنافقين ، لأنه دين الرجولة ، والشجاعة ، والصراحة ، والصدق في القول ، والإخلاص في العمل .

فإن الأوان في هذه الفترة لأخذ المنافقين بالسياسة التي يجب أن يؤخذوا بها ، وقد فتحت فيها مكة ، وأسلمت قريش التي كان أولئك المنافقون يعملون لها في المدينة ، وانتشر الاسلام في جزيرة العرب انتشاراً عظيماً ، واندحج الأنصار والمهاجرون في الاسلام اندماجا كاملاً ، ففسى الأنصار قرابتهم لأولئك المنافقين ،

ولم يبق هناك داع إلى مراعاتها في معاملتهم ، وقد كان من الواجب عليهم أن يراعوا ما آل إليه أمر الاسلام في هذه الفترة ، فيقلعوا عما دابوا عليه من تدبير الفتن والمؤامرات ، بل كان يجب عليهم أن يراعوا ما آل إليه أمر قريش من الاسلام ، وقد كانت أشد العرب عداوة له ، ولكن عداوة قريش للإسلام كانت عداوة ظاهرة ، والعداوة الظاهرة يرجى برؤها ، ويتوقع شفاؤها ، أما عداوة النفاق فهي عداوة كامنة ، فلا يرجى لها برء ، ولا يتوقع لها شفاء .

نعم إن هؤلاء المنافقين خففوا شيئاً من أمرهم عقب فتح مكة ، واستولى عليهم الضعف واليأس ، ولكنهم أخذوا يبحثون عن أعداء آخرين للإسلام يعملون لهم ، إلى أن وقع المسلمون في حرب مع نصارى الشام من عرب وروم ، فاتجه أولئك المنافقون إليهم ، وأخذوا يعمارون في المدينة لهم ، وتجدد فيهم الأمل بعد اليأس ، لأن الروم دولة قوية ، وليست كقريش أو غيرها من قبائل العرب . فلما كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة بين المسلمين ونصارى الشام ، أخذ المنافقون يثبّطون بعض المسلمين عنها ، وكان الناس في زمن عمرة وجذب وشدة حر ، فأخذ عبد الله ابن أبي يقول لهم : يغزو محمد بنى الأصفر (الروم) مع جبهة الحال والحر والبلد البعيد ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه

اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرونين في الحبال . وأخذ أصحاب عبد الله بن أبي من المنافقين يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج معه بأعذار كاذبة ، ، وفي بعضها شيء من السخرية والاستهزاء ، فقد ذهب إليه جماعة منهم يقولون له : يا رسول الله ، ائذن لنا ولا تفتننا ، لأننا لنا من نساء بنى الأصفر . وقد بلغ من أمر تدبيرهم في هذه المرة أن انخدع بهم بعض المخلصين من المسلمين ، فتخلفوا في أول الأمر عن هذه الغزوة ، وبقعدوا في المدينة بعد سفر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ندموا على تأخيرهم عنه ، فشدوا رحالهم إليه حتى لحقوه في الطريق ، واستغفروه مما حصل منهم ، فعفا عنهم ، وقبل الله توبتهم .

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الغزوة أمره الله أن يضع حداً لأولئك المنافقين ، فنزلت سورة التوبة (براءة) تفصح نفاقهم ، وتبين ما يجب أن يعاملوا به ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل أعذارهم الكاذبة في التخلف عن هذه الغزوة ، لأنه لم يكن يجب أن يشاركوه في القتال ، فعاتبه الله على إذنه لهم في الآية — ٣٤ — من هذه السورة (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبينوا كلك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) وكان عبد الله بن أبي قد مات عقب هذه الغزوة ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم صلاة لم يطل مثلها ، وشيّع جنازته حتى وقف على قبره ، فنهاه الله تعالى أن يعود

إلى مثل هذا مع المنافقين في الآية — ٤٨ — من هذه السورة
(ولا تُصلُّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَما آتَوْا وَهُمْ فاسِقُونَ)

وقد تقررت في هذه السورة السياسة التي يجب أن يؤخذ بها
المنافقون ، على أنها السياسة الأخيرة في أمرهم ، وفي أمر كل منافق
يظهر بين المسلمين في المستقبل ، وهذا في الآية — ٧٣ — من هذه
السورة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا أُوَاهِمُ بِهِمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) قال ابن عباس : أمر الله سبحانه
وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين
باللسان ، وإذهاب الرفق عنهم

وإنما كان جهاد الكفار بالسيف لأنهم يقاتلوننا به ، أما المنافقون
فيظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، وإظهار الإسلام يحقن الدم
والمال والولد ، لأن الله أمر بإجرام الأحكام على الظواهر ، فجهاد
المنافقين يكون تارة بإظهار الحججة عليهم ، وتارة بترك الرفق بهم ،
وتارة بانتهازهم

فسلك النبي صلى الله عليه وسلم سياسة الشدة مع المنافقين في
هذه الفترة ، ومن هذا أنهم كانوا يجتمعون في بيت منافق يهودي
يسمى سؤيلا ، فيدبرون فيه الفتن والمؤامرات ، فبعث النبي صلى
الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله في نفر من المسلمين ليحرقوا هذا

البيت عليهم ، فذهب اليهم فخرقه وهم مجتمعون فيه ، فلما راوا النار اقتحموا من ظهره فأفلتوا .

ومن هذا أنهم كانوا قد بنوا مسجد يضارون به مسجد قسباء ، وقالوا حين شرعوا في بنائه : نبني مسجدا فنصلي فيه ، ولا نصلي خلف محمد ، فإن أتانا فيه صلينا معه ، وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده ، فيؤدى ذلك إلى اختلاف الكلمة ، وبطلان الألفة . وكانوا قد أتموا بناء هذا المسجد قسبيل سفره إلى غزوة تبوك ، فذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يصلي بهم فيه ، فوعدهم أن يصلي بهم فيه إذا رجع من هذه الغزوة ، فلما رجع منها وظهر منهم ما ظهر فيها أمر جماعة من أصحابه فذهبوا إلى هذا المسجد وهدموه .

وقد كان لهذه السياسة أثرها في هذه الفترة بين المنافقين ، فقلَّ عددهم في المدينة ، وأقلعوا عن تدبير الفتن والمؤمرات ، ولا سيما بعد موت عبد الله بن أبي ، لأنه كان رئيسهم واليسر المحركة لهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاده في مرضه ، فطلب منه أن يصلي عليه ويقوم على قبره ، ثم أرسل اليه يطلب منه قميصه ليكفَّن فيه ، فأرسل اليه قميصه ، وقد قال له عمر بن الخطاب : لم تعط قميصك الرجس النجس ؟ فقال له : إن قميصي لن يغنى عنه من الله شيئا ، فلعل الله يدخل به ألفا في الإسلام . وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله في مرضه ، فلما أوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم خلق كثير منهم ، ولم يبق على النفاق إلا عدد قليل لم يظهر له أثر بين المسلمين ، ولم يعد له ذكر في السياسة الإسلامية الداخلية .

السياسة الخارجية من فتح مكة إلى الوفاة

(١) بين المسلمين وقريش

طلبت قريش في الفترة السابقة أن يهادنها النبي صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، فأجابها إلى ماطلبت ، ولم يطلب أن تزيد في مدة المهادنة شيئاً ، لأنها هي التي أُلجأت إلى حربها ، والحرب إذا قامت فلنكل من المتحاربين أن يمضى فيها حتى يصل إلى غاية تعوض ما أضعاع فيها من النفوس والأموال ، وهذا إلى أن قبلة المسلمين صارت إلى الكعبة بعد أن كانت إلى بيت المقدس ، وقد فرض عليهم الحج إليها كل سنة ، لأنها أول بيت وضع لعبادة الله تعالى ، كما قال تعالى في الآية — ٩٦ — من سورة آل عمران (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) وقد كان هذا البيت حين بناء إبراهيم وإسماعيل يعبد فيه الله وحده ، فلما قدم العهد بالعرب حولوه إلى عبادة الأصنام والأوثان ، فصار الناس يقصدونه من كل فجٍّ لعبادتها ، وحرّم المسلمون من زيارته وإقامة العبادة الصحيحة التي بنى من أجلها ، مع أنهم أولى به من غيرهم ، فمن حَقَّقهم بعد أن قامت الحرب بينهم وبين قريش أن يستمروا فيها حتى يصلوا إلى حَقِّهم فيه . ويظهر وه من تلك الأوثان والأصنام ، ويعيدوه إلى العبادة الصحيحة التي كانت تمام فيه قبل فساد دين العرب ، ووقوعهم في دين الشرك ، ليكون الحج إليه حجاً صحيحاً

يفيد الناس في دينهم ودنياهم . ولا يوقعهم في تلك الجبهات من عبادة الأصنام وما إليها من البدع الوثنية ، ومن حقهم أيضاً أن يستمروا في تلك الحرب حتى تنتهي بخضوع قريش ، لأنهم كانوا أرجح العرب عقولاً ، وأكملهم علماً ، فإذا دخلوا في الاسلام تبعهم غيرهم من العرب ، وصارت الجزيرة العربية كلها خالصة لهذا الدين ، فيصير أهلها جميعاً إخواناً فيه ، وتبطل بينهم الحروب والمنازعات ، وتتحقق لهم النهضة الدينية والدنيوية التي تراد من هذا الدين .

وقد كانت تلك الهدنة تمتد إلى السنة العاشرة من الهجرة ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حقق الغاية منها في سنتين ، فأخضع فيهما يهود خيبر ، وأدخل كثيراً من قبائل العرب وإماراتهم في الاسلام ، ووادع كثيراً من القبائل ، حتى صارت قريش بمكة في شبه عزلة ، وأصبحت أضعف مما كانت يوم أن عقدت تلك الهدنة ، فكانت هذه الهدنة سيئة الأثر فيها ، حتى إن كثيراً من زعمائها تركوها إلى صفوف المسلمين ، مثل خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص ، فلم يكن أمام النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذين السنتين في جزيرة العرب إلا قريش ، وقد صار في أشد الحاجة إلى إخضاعها ، ليتفرغ للحرب الجديدة التي أُلجئ إليها في الشام ، ووقع بها في عدو قوى من نصارى العرب والروم .

ولسكن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكنه أن ينقض تلك الهدنة ، لأن دينه يأبى له نقض العهد ، ولا يسوغ له هذا ولو كان في نفسه مصلحة له ، ولا يبيح له أن ينظر إلى المعاهدات على أنها قصاصات من الورق ، تمزق في سبيل المصالح الخاصة ، وتنقض عند الشعور بالقوة ، كما تبيح هذا السياسة المسكافيلية الآثمة ، ولا يتورع عنه من يأخذ بهذه السياسة من الدول الحديثة .

وهنا يحل القدر العادل هذه المشكلة لمصلحة الإسلام ومصلحة قريش معاً ، فيحفظ الإسلام من إثم نقض العهد ، ويعجل الهداية لقريش من الشرك ، ويجعلها تعجل هي بنقض العهد ، وذلك أن حلفاءها من بني بكر أرادوا أن يغيروا على بني خزاعة ، وهم حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سبق ذلك في صلح الحديبية ، فأعانت قريش بني بكر سرّاً بالهدنة والرجال ، ثم أغاروا على بني خزاعة فقتلوا منهم ما يربو على العشرين .

فأرسل بنو خزاعة وفداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بما فعلت قريش وبنو بكر بهم ، وكان على رأس هذا الوفد عمرو بن سالم ، فسار حتى وصل إلى المدينة ، فوقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين المسلمين ، فقال :

يا ربّ إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه ألا تلتدا (١)

فانصر هذا لك الله نصرأ أعتدا وادع عباد الله يا توامددا (١)
 في فيلق كالبحر يجرى من بدا إن قريشاً أخطفوك المبرعدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجماؤا إلى في كداء رصدا
 وزعموا أن لست أدعوا أحدا وهم أذل وأقل عددا
 هم يبتونا بالوتير مسجسدا وقتلونا ركعنا وسجدا
 فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم .
 ثم عرض عنان^٢ من السماء (٢) فقال : إن هذه السحابة لتستهل
 بنصر بني كعب . يعنى بنى خزاعة . ثم قال : والله لأمنعنكم بما أمتنع
 منه نفسي .

ولم تلبث قريش أن تنبعت إلى أنها نقضت عهدها مع النبي صلى
 الله عليه وسلم ، فتيقظت من غفلتها ، وشعرت بضعفها ، ورأت
 أن أبناءها قد فر كثير منهم إلى المدينة ، ومنهم قائدها المظفر خالد
 ابن الوليد ، ورجلها في السياسة والدهاء عمرو بن العاص ، ومن
 بقي منهم بمكة قد تزعزت عقيدته في الشرك ، وصار قاب قوسين أو
 أدنى من الاسلام ، ثم رأت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تضاعفت
 قوته ، وانضمت إليه إمارات وقبائل كثيرة من العرب ، فتقدمت
 على نقضها العهد ، ورأت أن تبادر فترسل أبا سفيان بن حرب

(١) الأعتد الحاضر

(٢) العنان السحاب .

إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يعلم ما حصل منها ، ليشدَّ في عقد الصلح ، ويزيد في مدته ، وهو خداع في السياسة ، ولكنّه خداع ضعيف آثم ، لأن بني خزاعة كانت قد سبقت إلى إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما حصل من قریش ، وكان يجب على قریش أن تعلم أن بني خزاعة سيسبقونها إلى هذا ، لأن المظلوم يكون أسرع إلى الشكوى من الظالم ، وهذا إلى أن ذلك الطلب المفاجيء لزيادة مدة الهدنة يحدث ريبة في النفس ، وينبئها إلى أنه يخفى وراءه غاية أخرى .

وقد سار أبو سفيان حتى وصل إلى المدينة فنزل على ابنته أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أراد أن يجلس على فراشه فطوته عنه ، فقال لها : يا بنيّة ، أرغبت به عنى أم رغبت بي عنه ؟ فقالت له : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال لها : لقد أصابك بعدى شر . ثم خرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فعرض عليه ما جاء من أجله ، فقال له : هل كان من حدّث ؟ فقال : لا . فقال له : فتنحن على مدتنا وصلحنا . فقام أبو سفيان إلى أكابر المهاجرين من قریش ، لعلمهم يساعدونه على مقصده ، فلم يجد منهم معينا ، فرجع إلى مكة ولم يصنع شيئا .

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم سلك هنا سياسة أبرع من

سياسة أبي سفيان ، فقد أراد أن يخدعه لينزله في مكة المقدسة ، فأفسد عليه خداعه ، ولم يخبره بنقضهم العهد ، فرجع إلى مكة مخدوعاً بعد أن أتى خادعاً ، واستنام هو وقومه إلى ما أراده النبي صلى الله عليه وسلم من إخفاء هذا عنهم ، ليأخذهم في غفلة ، ويضمهم إلى الاسلام الذي تهيأت له نفوسهم ، من غير أن يريق دماً ، أو يقيم حرباً ، أو يملك من قبيلة من القبائل المتعصية على الاسلام أن تدخل بينه وبينهم ، وقد بلغ من أمرهم أنهم أساءوا الظن بأبي سفيان حين رجع اليهم ولم يصنع شيئاً ، فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام ، ففتنك عند الأوثان لينفي عن نفسه تهمة .

وقد بادر النبي صلى الله عليه وسلم فأعد العدة سرّاً للسفر ، ولم يخبر أحداً من أصحابه بوجهته إلا أبا بكر ، ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة للجهاد ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجُهينة وغيرهم ، وما زال يتجهز ويجمع حتى تجهز بعشرة آلاف من الجنود ، وقد طوى سره عليهم ، وأقام حراساً على الطرق الموصلة إلى مكة ، حتى لا يتمكن المنافقون من توصيل أخبار إليها .

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، فلما بلغ تمرّ الظاهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قریش قد بلغها خبر هذا الجيش العظيم ،

ولسكنها لم تعلم وجهته ، فأرسلت أباسفيان وحكيم بن حزام وبشديل
ابن ورقاء يلتمسون لها خبره ، فساروا حتى أتوا صر الظهران ،
فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان لصاحبيه :
ما هذه ؟ لسكنها نيران عرفة . فقال بديل : نيران بني عمرو . فقال
أبو سفيان : بنو عمرو أقل من ذلك . فرآهم نفر من حرس
المسلمين ، فأخذوهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنا أسلم
أبوا سفيان وهو أكبر زعيم في قریش ، وقد أراد النبي صلى الله عليه
وسلم أن يريه عظمة هذا الجيش ، فأمر عمره العباس أن يقف به عند
حطم الجبل ، فجاءت القبائل تمر عليه كتيبة كتيبة ، حتى مرت عليه
قبيلة الأنصار ، وحامل رايتها سعد بن عُبادة ، فقال لأبي سفيان :
اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة . فقال أبو سفيان
للعباس : يا عباس ، حبنا يوم الزمار . ثم جاءت كتيبة النبي صلى
الله عليه وسلم ، فأخبره أبوا سفيان بمقالة سعد ، فقال له : كذب
سعد ، ولسكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى
فيه الكعبة .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون (١)
وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ، ودخل هو من
أعلاها ، ونادى بالأمان في أهلها ، فكأنما كانوا معه على ميعاد

(١) جبل بعمالة مكة .

أن يسلموا إذا جاء اليهم ، فأسلموا طائعين مختارين ، وبقي أفراد
منهم على شركهم ، فأماهم حتى أسلموا من أنفسهم ، ثم جمعهم
وقال لهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : خير ، أخ كريم ،
وابن أخ كريم . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وكان قد أهدر
دماء نفر منهم ، فلما أسلموا عفا عنهم .

وهكذا كانت سياسته مع قومه سياسة كريمة من أول بعثته
إلى أن فتح بلدكم ، فصبر عليهم وهو ضعیف بينهم . ثم هاجر من
مكة إلى المدينة فقابل قوتهم بثلبا ، وحاربهم كما حاربوه ، فلما ضعفوا
رثى لضعفهم ، وصبر عليهم حتى ضمهم اليه من غير أن يراق منهم
دم ، أو تنتهك حرمة لبلدكم ، فلم يستسلمهم إلا أن يعرفوا له هذا
الفضل ، ويخلصوا له كمن أخلص له من قبل ، ويبدلوا أنفسهم
وأموالهم في الجهاد معه ، وينقلبوا أعدا لمن كان معهم من
القبائل عليه .

(٢) بين المسلمين وباقي العرب

كانت أكثر القبائل العربية قد دخلت في الاسلام أو حالفته
قبل هذه الفترة ، ولم يبق منها إلا قبائل قليلة بجوار مكة ، كبنی
هوازن وثقیف ، وقد فاجأهم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة
بفتح مكة ، فلم يمكنهم من مشاركة قريش في الدفاع عنها ، ولا من
التأثير في رغبة أهلها في المسالمة ، والدخول في الإسلام الذي

أستعدت نفوسهم له ، فاكل الغيظ قلوبهم ، وأرادوا أن يهاجروا
النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يرسخ قدمه فيها ، ويثبت دينه
في نفوس أهلها .

فاجتمع أشراف هذه القبائل من هوازن وثقيف وغيرهم ،
وأخذوا يتشاورون في أمرهم ، فقال بعضهم لبعض : قد فرغ محمد
من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنخزّه قبل أن يغزونا . فأجمعوا
على قتاله ، وجعلوا القيادة لمالك بن عوف ، فأمرهم أن يأخذوا
معهم نساءهم وذرايرهم وأموالهم ، ليجعل خلف كل رجل أهله
وماله يقاتل عنه ، فجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ، ثم الإبل ، ثم
البقر ، ثم الغنم .

فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يستعدون لحربه خرج
إليهم ، وكان هذا عقب فتح مكة ، وقد انضم إليه أهل مكة كلهم ، حتى
من بقي منهم على شركه ، فالتقى بهم في حنين ، وهو واد في طريق
الطائف إلى جنب ذي الحجاز ، بينه وبين مكة ثلاث ليال ، فنصره
الله عليهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وقد انهمزوا أمامه حتى لحقوا
بالطائف ، وكانت مدينة حصينة ، فسار وراءهم لفتحها ، لأنها كانت
أهم مدينة في الحجاز بعد مكة والمدينة ، فحاصروهم فيها ثمانية عشر
يوماً ، وكانوا قد ادخلوا معهم قوت سنة ، فأمر بأن ينصب عليهم
المنجنيق ، فنصب ودخل بعض المسلمين تحت دبابتين لينقبوا

الحصن ، فأرسل أهل الطائف عليهم سلك الحديد محماة بالنار حتى أرجعهم ، فأمر أن تقطع أعنانهم ونخيلهم فقطعت قطعاً ذريها ، فلما رأوا هذا نادوه أن دَعَّهَا الله والرحم ، فقال : أدعها الله والرحم . ولما رأى أن تمنُّهم شديد استشار نوفل بن معاوية في الذهاب أو المقام ، فقال له : يا رسول الله ، ثعلب في جحر ، إن أقت أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر المسلمين بالرحيل ، وقد طلب منه بعض أصحابه أن يدعو عليهم ، فدعا الله أن يهديهم ، ويأتى بهم إليه مسلمين

(٣) وفود العرب إلى المدينة

كانت غزوة حُنين خاتمة حروب النبي صلى الله عليه وسلم مع العرب ، إذ انكسرت بعدها شوكة المشركين ، ولم تبق إلا فئات قليلة يسوقها الطيش إلى إشهار السلاح ، ثم لا تلبث أن تغمدده ، فجاءت وفود القبائل إلى المدينة تعلن إسلامها ، وتقدم طاعتها للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن هذه الوفود وفد هوازن ، وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يزال بمكة ، فأعلن إسلام قومهم ، وطلبوا منه أن يطلق أسراهم ، فاطلقهم ورد إليهم أموالهم . ومنها وفد ثقيف ، ووفد بنى عبد القيس ، ووفد طى ، ووفد كندة ، إلى وفود كثيرة من سائر قبائل العرب وبلادهم وإماراتهم ، حتى عم الإسلام العرب جميعاً ، ولم يبق بينهم على الشرك إلا فئات قليلة لا تذكر .

(٤) انتهاء العهد بين المسلمين والمشركين

أنت هذه الفترة وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين عهدان: أحدهما عهد عام، وهو ألاَّ يُصدَّ أحد عن زيارة البيت الحرام، وألاَّ يخاف أحد في الأشهر الحرم. وثانيهما عهد خاص، وهو الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض القبائل العربية إلى آجال محدودة.

وقد فتحت في هذه الفترة مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وطهرت الكعبة من الأصنام التي كان المشركون يحجون إليها، ويزورون الكعبة لعبادتها، وكان للمشركين في حجهم عادات قبيحة مدمرة، كطوافهم عرايا بالكعبة رجالهم ونسائهم، إلى غير هذا من العادات التي لا يمكن الإسلام أن يقرهم عليها بعد استيلائه على مكة، لأنها تضر العرب في دينهم وأخلاقهم، وتقف عائقاً في سبيل نهوضهم، فلا يصح أن يبقى ذلك العهد العام على حاله بعد استيلاء المسلمين على مكة، وبعد أن صاروا مسئولين أمام العالم وأمام التاريخ عن كل مايجرى فيها، مما لا يبيحه دين ولا خلق، ولا ترضى به أمة تريد التقدم والنهوض.

وقد انتشر الإسلام في هذه الفترة بين العرب، ولم يبق على الشرك إلا فئات قليلة لا تذكر من قبائل البادية، فصارت بلاد العرب كلها وطناً للإسلام، وله الحق أن يأخذ فيه بما يراه من

مصلحته ، وهذه الفئات القليلة الباقية على الشرك لا تخص له ،
وهي قبائل من البادية تريد أن تبقى على قديمها من الفوضى ، ومن
الاعتماد في عيشها على السلب والنهب ، فلا بد من إخضاعها للنظام
الذي يسمى إليه الإسلام ، إذ لا بد له من القضاء على كل أثر للفوضى
في وطنه ، حتى يمكنه أن ينهض به . وأن يار وسائل النظام فيه ،
وهو إلى هذا قد اشتبك في حرب خارجية مع نصارى العرب والروم
بالشام . وستجبره هذه الحرب إلى الاشتباك بدولة الروم ، كما
سيجبره المظهر العدائي الذي بدا من كسرى إلى الاشتباك بدولة
الفرس ، ولا سيما بعد انتزاعه اليمن منها ، ودخول أهله في طاعته .
ولا شك أن هذا كله يقتضى أيضا نظرة جديدة إلى تلك العهود
الخاصة ، لأنها عقدت في ظروف تخالف هذه الظروف الطارئة ،
وهذه النظرة تخالف النظرة السابقة إلى العهود العامة ، لأن العدل
له حق فيها يراعى الإسلام ، كما يراعى حقه في النظر إليها على ضوء
هذه الظروف .

فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة نزلت أوائل سورة التوبة
بما يجب عمله في تلك العهود ، فقال تعالى (برأء من الله ورسوله
إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر
واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان
من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من

المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ، وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا آيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ، وإن نكشوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون .

وهذه الآيات تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم ، وإمهاهم أربعة أشهر يسيحون فيها كيف شاءوا

في الأرض ، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم ، فإذا انقضت مدتهم لم يجدد عهد بعدها لهم ، ويزول بهذا حكم ما كان لهم من عهود عامة أو خاصة . وكان أبو بكر قد سافر في هذه السنة إلى مكة ليحجَّ بالناس ، فنزلت هذه الآيات بعد سفره ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب بها ليلبلغها للناس يوم الحج الأكبر ، فلتحق بها عليَّ أبا بكر في الطريق ، وسار معه حتى قرأها على الناس في ذلك اليوم ، وعرفهم أن من كان له عهد خاص منهم أمهل أربعة أشهر ، حتى يتم حجه هذا العام ، ويرجع إلى موطنه ، ثم بلغهم : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان

وليس فيما عمله الإسلام من هذا حجراً على العقيدة ، ولا إكراهاً للناس على الإسلام ، وإنما هو عمل دعا إليه ما سبق من حرب هؤلاء المشركين للمسلمين ، وإضمارهم العداوة والبغضاء لدينهم ، كما دعا إليه مصلحة الوطن في دينه وأخلاقه وعاداته ، وفيما يحيط به من الأعداء الذين يريدون الشر به ، فلا بد أن يكون أهل كلهم كتلة واحدة أمام أعدائهم ، ولا يصح أن يوجد بينهم من يكون ضلعه مع هؤلاء الأعداء .

وقد كان لهذا العمل ثمرته فيهم ، فأصبحوا أمة واحدة لها دين واحد تدين به ، ولها وطن واحد تخلص له ، ولها دولة واحدة

تخضع لها ، ولم تعد قبائل متفرقة متباغضة ، لا يجمع بينها دين ولا وطن ولا دولة ، وهذه غاية يهون في سبيلها ذلك العمل ، وإن كان فيه شيء من الشدة ، لأن من الشدة ما يكون حزمًا محموداً ، وتربية نافعة ، كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً

فليقس أحياناً على من يرحم

(هـ) قيام بعض الثورات

تم للإسلام في هذه الفترة ما تم من اجتماع العرب عليه ، والتفافهم حوله ، فحافظ هذا بعض القبائل العربية من قحطان وربيعة ، ورأوا أن ظهور الإسلام بالحجاز سيجعل لقبائل مضر السيطرة عليهم ، فثار بعض القبائل من قحطان باليمن ، وثار بعض القبائل من ربيعة باليامة ، وكان هذا في السنة العاشرة من الهجرة ، وكان لنصارى هذين القطرين أثر أيضاً في ثورة هذه القبائل كما سيأتى ، ولعلمهم أرادوا أن يقوموا في الجنوب بثورة تساعد نصارى الشام في الحرب التى قامت بينهم وبين المسلمين

وقد قام الأسود العنسى بالثورة الأولى ، وكان قد أسلم ثم ارتدّ وادعى النبوة ، فأخذ يشعبذ ويرى الجبال الأعاجيب ، ويسببهم بمنطقه ، وقد كاتبه نصارى نجران فسار اليهم ، ثم انتقل من نجران إلى صنعاء فملكها ، وصفا له ملك اليمن ، واستفحل

أمره ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الأبناء ، وأمرهم أن يأخذوه إما غيلة أو مصادمة ، وأن يستنجدوا رجالا من حمير وهمدان ، وكان الأسود قد تغير . على قيس بن عبد يغوث ، فاجتمع به جماعة من كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدثوا معه في قتل الأسود فوافقهم ، فاجتمعوا بامرأته وكان قد قتل أباه ، فقالت : والله إنه لا بغض الناس إليّ ، ولكن الحرس محيطون بقصره ، فانقبوا عليه البيت . فواعدوها على ذلك ، ونقبوا عليه البيت ، ودخل عليه شخص اسمه فيروز فقتله وأخذ رأسه ، فخار خوار الثور ، فابتدر الحرس الباب ، فقالت امرأته : هذا النبي يوحى إليه . فلما طلع الفجر أمروا المؤذن فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن الأسود كذاب . فانتهى بهذا أمره . وكان قتله قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة .

وقد قام بالثورة الثانية مُسَيَّلَة الكذاب ، وكان من بني حنيفة باليمامة ، وقد أسلم ثم ارتد وادعى النبوة ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب منه أن يشركه في أمره ، وكان في يد النبي صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد ، فقال له : إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها . فرجع إلى قومه بني حنيفة باليمامة ، فادعى النبوة فيهم ، وانضم إليه نصارى بني تغلب وغيرهم من قبائل

رابعة ، وقد قتله المسلمون في وقعة اليمامة ، وكان هذا في أوائل خلافة أبي بكر .

(٦) بين المسلمين ونصارى العرب والروم

كان هرقل ملك الروم لا يرى حرب المسلمين ، ولكن نصارى الشام من العرب والروم كاتوا يرون حربهم ، وقد منع هرقل الحارث بن أبي شمر في الفترة السابقة من غزو المدينة ، وأمره بمسألة النبي صلى الله عليه وسلم ، فخضع لأمره على كره منه ، فلما خضعت جزيرة العرب كلها للمسلمين في هذه الفترة ، أكل الحقد قلوب الإمارات العربية بالشام ، وتحفز النصارى فيها من عرب وروم لحرب المسلمين ، لأن استيلاء المسلمين على بلاد العرب قطع ما كان لهم بها من صلات سياسية وتجارية ، لأنهم كانوا يستعينون ببعض القبائل العربية في حروبهم ، وكانت مكة أهم مركز تجارى بينهم وبين اليمن وبلاد الهند .

فازدادت العلاقة سوءاً بين المسلمين ونصارى الشام في هذه الفترة ، وقد كان للمسلمين ثارات عندهم بقتلهم رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى ، وبمن قتلوه من المسلمين في سرية مؤتة ، فكان كل من الفريقين يريد حرب الآخر ، ولكن نصارى الشام أرادوا في هذه الفترة أن يسبقوا المسلمين إلى الحرب ، لأن

المسلمين كانوا قد وقعوا في ضيق وعسر ، بجذب حصل لهم ، وبما
توالى من الحروب عليهم ، فكتب أولئك النصارى إلى ملك الروم :
إن هذا الرجل الذى خرج يدعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون
شديدة ، فهلكت أمواهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم تجمعهم لحربه من الأنباط الذين
كانوا يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، فأراد أن يغزوهم قبل
أن يغزوه ، وأمر المسلمين بالتجهز لغزوهم ، وكان قلماً يخرج
في غزوة إلا ورى غيرها ليعمى الأخبار عن العدو إلا في هذه
الغزوة ، فإنه أخبر بمقصده فيها ، لبعد الشقة ، وكثرة العدو ،
فأخذ الناس عدتهم ، ويعلموا أنهم قادمون على عدو قوى ،
فيوطنوا أنفسهم على حربه ، ولا يهنوا إذا التقوا به .

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ألفاً ، ثم سار بهم في
السنة التاسعة من الهجرة حتى وصلى إلى تبوك ، وهى موضع
بين وادى القسرى والشام ، بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة ،
وقد سميت هذه الغزوة باسمه ، فأقام به نحو عشرين ليلة ، وكان
لمبادرته بهذا الجيش أثرها فى صرف أولئك النصارى عما كانوا
قد عزموا عليه ، فلم يجد منهم أحداً يحاربه ، ولم يشأ أن يشير حرباً
عليهم هذه المرة ، شفقة بالمسلمين فيما كانوا فيه من ضيق وعسر ،
وقد جمع أصحابه يستشيرهم فى مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من

بلاد الشام ، فقال له عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالسير
فَسِيرْ . فقال له : لو كنت أمرت بالسير لم أَسْتَشِر . فقال عمر :
يا رسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بالشام أحد من
أهل الإسلام ، وقد ذُنُوبُنَا ، وقد أفرغهم دنوُّكَ ، فلورجعنا
في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً . فأخذ برأى عمر ، ولم
يجاوز تبوك إلى مابعدھا .

وقد أمكن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعقد في هذه الغزوة
معاهدات صلح مع يوحنا صاحب أيلة^(١) وأهل أذرح
وجرّباء^(٢) وأكيدر بن عبد الملك أمير دومة الجندل ، وهي
حصن وقرى من طرف الشام ، وكانوا جميعاً نصارى تابعين لدولة
الروم ، فصالحوه على الجزية .

وهذا كتاب الصلح بينه وبين صاحب أيلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا أمانة من الله ومحمد النبي
رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيّارتهم في البر والبحر ،
لهم ذِمّة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل
اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحوز ماله دون
نفسه ، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا

(١) قرية بين مكة ومصر من بلاد الشام على ساحل البحر .

(٢) أذرح وجرباء من بلاد الشام بينهما ثلاثة أميال .

ماء يَرِدُونَهُ ، ولا طريقاً يَرِدُونَهُ من بر أو بحر .

وهذا كتاب الصلح بينه وبين أهل أذرب وجرباء :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا كتاب من محمد النبي لأهل
أذرب وجرباء ، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وإن عليهم
مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح
والإخلاص للمسلمين »

ولما كانت السنة العاشرة بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً
إلى أبى^(١) على رأسه أسامة بن زيد بن حارثة ، وقال له : سر إلى
موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر
صباحاً على أهل أبى ، وحرق عليهم ، وأسرع السير لتسبق
الأخبار ، فإن ظفرك الله فأقل اللبث فيهم ، وخذ الأدلاء ، وقدم
العيون والطلائع معك

وكان أسامة شاباً لا يتجاوز السابعة عشرة ، وكان في جيشه
أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد وغيرهم من كبار المهاجرين
والأنصار ، وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أن يدرّب
شبان المسلمين على قيادة الجيوش ، وأن يعلم المسلمين حسن الطاعة ،
حتى يتواضع كبيرهم لصغيرهم ، ولا يكون للتفاوت في السنّ تأثير
عندهم ، لأن المرء لا يمتاز بسنّه ، وإنما يمتاز بأصغريه : قلبه ولسانه .

وهذه سياسة فيها من قصد التجديد ما فيها ، وقد خفيت حكمتها على بعض أهل الجور ، فقال بعضهم مقالة في انتقادها ، فغضب النبي غضباً شديداً ، وخرج فقال : أما بعد — أيها الناس — فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وإيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بها ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإنهما لمظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أدركه الموت قبل أن يسير هذا الجيش إلى الشام ، فسار إليها في أول خلافة أبي بكر

(٧) بين المسلمين والفرس

لم يشأ النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى حرب الفُرس ، بعد أن ممزَّق ملكهم كتابه ، وأمر عامله على اليمن أن يبعث إليه رجلين جلسدين ليأتياه به ، ولا شك أن هذا إيذان بالحرب ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم آثر أن يشتغل بحرب نصارى الشام ، لأنهم بدأوا بحربه ، وكانوا تابعين لدولة الروم ، فلم يكن من حسن السياسة الاشتغال بحرب تينك الدولتين معاً ، ولا تزال بلاد العرب حديثة عهد بالإسلام ، ولا تزال في حاجة إلى فترة

من الزمن يستقر فيها أمره ، ويستعد فيها العرب لحرب تينك
الدولتين القويتين .

وكانت دولة الفرس في هذه الفترة قد اضطربت أحوالها ،
لأن شيرويه الذى تولى عليها بعد أن قتل أباه أبرويز كان ردىء
المزاج ، كثير الأمراض ، صغير الخلق ، وكان له سبعة عشر
أخاً كأنهم عوالى الرماح ، قد كملوا في حسن الخلق والأدب
والأخلاق ، فقتلهم جميعاً ثم ندم على قتلهم ، وابتلى بالأسقام ، فلم
يلتد بشيء في حياته ، وجزع جزعاً شديداً ، حتى حرم نوم الليل ،
وصار يبكي ليلاً ونهاراً ، ويرمى التاج عن رأسه ، ولم يزل على هذا
الحال حتى هلك بعد ثمانية أشهر من ولايته ، فقام بعده ابنه
أردشير ، وكان ابن سبع سنين ، فحضره بعض رجال الفرس ،
وكان شهريران من قواد الفرس مشتهراً بحرب الروم ، فسار
بمسكركه واغتصب الملك من أردشير بعد أن مكث في الملك سنة
وسنة أشهر ، ولم يكن شهريران من أهل بيت المملكة ، فلم يمهله
الفرس بل ثاروا عليه وقتلوه ، وولَّوْا عليهم بوران بنت أبرويز ،
ولم تزل دولة الفرس في هذا الاضطراب إلى أن قضى المسلمون
عليها في عهد الخلفاء الراشدين

فراى النبی صلی الله علیه وسلم أن یترك الفرس فی هذه الفتن ،

ليستفرغ لحرب نصارى الشام ، حتى يستقر الإسلام في بلاد العرب ،
ويفعل الله بعد هذا ما يشاء .

(٨) بين المسلمين والحبيشة

رعى الإسلام للحبيشة ما كان من إكرامها لجوار المسلمين بها
إلى هذه الفترة ، ولكن يظهر أن أهلها تأثروا بالحرب التي قامت
بين المسلمين ونصارى الشام ، فأرادوا أن يناوشوا المسلمين ،
ليساعدوا نصارى الشام ، لأنهم نصارى مثلهم .

ولعل هذا يفسر ما قام به جماعة من الحبيشة من محاولة الإغارة
بسفنهم على جُدَّة^(١) وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة ، مع
أنهم لم يسبق لهم مثل هذه المحاولة ، وقد مكث مهاجرة المسلمين
بينهم إلى السنة السابعة من الهجرة ، فأرسل النبي صلى الله عليه
وسلم إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة رجل ، فلما وصلوا إلى جدة
نزلوا في السفن ليدركوهم ، وكانوا متحصنين في جزيرة بالبحر ،
فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا أمامهم ، ولم يلحقهم المسلمون
بل رجعوا إلى جدة ، ولم يحصل من الحبيشة بعد هذا مثل
هذه المحاولة .

(١) مدينة بالحجاز على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) .

الدولة الإسلامية في عهد النبوة

(١) رعايا الدولة

الدولة هي الحكومة التي تقوم في طائفة من الناس لتدبير مصالحهم الداخلية والخارجية ، ولم يكن للعرب قبل الإسلام حكومة ترعى لهم هذه المصالح ، وإنما كانوا قبائل متفرقة متعادية ، يظلم قويتهم ضعيفهم ، ويعتدى بعضهم على بعض ، فكان للقوة لا الدولة حكمها فيهم ، وكان للطغيان لا القانون أمره في الفصل بينهم ، فلما جاء الإسلام أنشأ لهم هذه الدولة ، وجمع ما تفرق من كلتهم ، فجعلهم أمة واحدة تخضع لحكومته ، وجعل لهم شريعة واحدة يخضعون لحكمها ، فزال من بينهم حكم القوة ، وبطل من بينهم حكم الطغيان ، وساد النظام في الحواضر والبادي ، وذهبت تلك الجاهلية بما كان فيها من فوضى وآثام .

وقد جاءت هذه الدولة عرضاً لا قصداً ، لأن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا ، ولم يبعثه ملكاً ولا أميراً ، وقد كان من الرسل ملوك كداود وسليمان عليهما السلام ، ولكن الله اختار محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا فقط ، لتكون رسالته خالصة للدين الذي جعله خاتم الأديان ، فتتفق عليه الكلمة بعده ، ولا يتخاصم فيه أتباعه ، لأن الملك يثير الطمع في الناس ، ويحدث

التنازع بينهم ، وهذا إلى أنه يكون إرثاً يتناقله الخلف عن السلف ، ويستأثر به قوم دون قوم ، وإلى أن الله تعالى أراد ألا يكون للنبي صلى الله عليه وسلم شيء من مظاهر الملك ، ليكون مثلاً لأتباعه في التواضع للناس ، والتعفف عن تلك المظاهر ، فيكون أمر الإسلام للمسلمين جميعاً ، ولا يختص به قوم دون قوم منهم ، ولا يقع بينهم تنازع على الحكم والملك ، ولا يطلبوه لمظاهرة ومغانمة ، بل ليكونوا خدّام الأمة ، ورعاة مصالحها العامة والخاصة .

وكانت الدولة الإسلامية في آخر عهد النبوة تشمل الجزيرة العربية من أقصاها شمالاً إلى أقصاها جنوباً ، ومن أقصاها شرقاً إلى أقصاها غرباً ، وكان يدخل فيها أيضاً بعض من أطراف الشام المجاورة لبلاد العرب ، وكانت البلاد التي تشملها تنقسم إلى قسمين : ١ — بلاد دخلت في الإسلام بحق الفتح ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يولّي عليها العمال من قبله ، كما ولّى عتّاب بن أسيد على مكة بعد فتحها ، وكانت هذه البلاد لا تكاد تتجاوز الحجاز ونجداً .

٢ — بلاد دخلت في حكم الإسلام بطريق الصلح ، وهي البلاد التي كان لها ملك أو أمير قبل الإسلام ، وقد أبقى النبي صلى الله عليه وسلم لهذه البلاد ملوكها وأمرائها ، لأنه لم يبحث

بدينه ليسلب من الملوكة والأمراء ملكهم ، وإنما بعث به هادياً لهم ، فمن أسلم منهم بقي له ملكه ، ولم يطالبه الإسلام إلا بتنفيذ شرائعه ، ومن صالح على دفع الجزية بقي له ملكه أيضاً ، ولا يطالبه الإسلام إلا بدفع الجزية .

وهذه البلاد كانت تشمل ما يأتي من الممالك والإمارات (١) مملكة البحرين ، وكان ملكها مسلماً ، وهو المنذر بن ساوى (٢) مملكة عُثْمَان ، وكان عليها ملكان مسلمان ، وهما جَيْشْفَر وعبد ابن الجَلَسَنْدِي (٣) إمارة تِيَام ، وكان أميرها يهودياً (٤) إمارة أَيْلَة ، وكان أميرها نصرانياً (٥) إمارة دومة الجندل ، وكان أميرها نصرانياً (٦) إمارة نَجْرَان ، وكانت إمارة نصرانية (٧) إمارات اليمن ، وكانت إمارات يحكمها أمراء مسلمون من الحميريين ، ماعدا إمارة صنعاء ، فإنه كان يحكمها باذان بن ساسان من الفُرس ، وكان مسلماً أيضاً ، وقد مات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام بعده ابنه شهنش ، فمكث أميراً على صنعاء إلى أن غلب عليها الأسود العنسي فقتله ، وقد قتل الأسود العنسي قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة ، فلما قتل تولى صنعاء خالد بن سعيد الأموي ، فذهبت بولايته هذه الإمارة

(٢) نظام الأديان في الدولة

وجدت أديان أربعة في الدولة الإسلامية على عهد النبوة :

١ — الإسلام ، وكان هو دين هذه الدولة ، لأنه كان دين جمهور أهلها ، ومن حق هذا الجمهور في كل دولة قديمة أو حديثة أن يكون دينه هو دين دولته ، لأنه هو الذي يقوم بالقسط الأكبر مما يلزم لها من النفوس والأموال ، فيقدم لها ما يلزمها من الجنود ، ويقدم لها ما يلزم لنفقاتها من الأموال ، فيجب أن ترعى له في نظير هذا أهم شيء عنده وهو دينه ، لأن فيه سعادته في دنياه وأخراه ، فإذا اتخذته شعارا لها بذل أهله نفوسهم وأموالهم لها عن إخلاص وحسن اعتقاد ، ودانوا بطاعتها في باطنهم قبل ظاهرهم ، فتنتظم أمورها بحسن الإخلاص والطاعة ، وتتضافر جهود الأمة والحكومة في النهوض بالوطن .

٢ — اليهودية ، وكانت ديناً لبعض أهل اليمن في الجنوب ، وبعض أهل الشام في الشمال .

٣ — النصرانية ، وكانت ديناً لبعض أهل اليمن في الجنوب ، وبعض أهل الشام في الشمال .

٤ — المجوسية ، وكانت ديناً لبعض أهل البحرين في الجنوب . وكانت هذه الأديان الثلاثة تعامل في هذه الدولة معاملة عادلة ، وكان أهلها يتمتعون فيها بالحقوق الوطنية التي يتمتع بها المسلمون ،

فكان لهم فيها ما للمسلمين ، وعليهم فيها ما عليهم ، وهذا هو أصل
المساواة الذي جاء به الإسلام قبل أن يحى به غيره ، وكذلك
جعل الإسلام أهل هذه الأديان إخوة المسلمين في هذا الوطن ،
يوادئونهم كما يوادئون إخوانهم من المسلمين ، ويحرم عليهم أن
يؤذوهم بالفعل أو بالقول ، حتى لقد ذهب بعض الفقهاء إلى تحريم
أن يقال للواحد منهم — يا كافر — إذا كان هذا يؤذيه ، وكل
هذا يدخل في قوله تعالى في الآية — ٨ — من سورة الممتحنة
(لا ينهاكم الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ
أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتَقْسُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

وقد أباح الإسلام لأهل هذه الأديان أن يقوموا بفرائضهم ،
وأن يظهروا بينه بعقائدهم ، وأعطى لهم الحق في أن يحكموا بشرائعهم
في أحوالهم الخاصة بهم ، فأتى الإسلام في هذا بحرية الدين
والاعتقاد قبل أن يأتى به غيره ، وقد عاملهم في الأحكام العامة
كما يعامل المسلمون ، لأن نظام الدولة يقضى بأن يعاملوا فيها مثلهم ،
ليشعروا بأن لهم دولة واحدة تجمعهم ، ووطناً واحداً يؤلف
بينهم ، وشرعية عامة واحدة يؤخذون بأحكامها في باب المعاملات
والجنايات وما إليها ، ليكونوا فيها سواء في غنمها وغرمها .

ولم يأخذ الإسلام من أهل هذه الأديان إلا مقداراً قليلاً من
المال سماه جزية ، وهو لا يذكر بجانب الزكاة التي يأخذها من

المسلمين ، وهو لا يأخذ هذه الجزية منهم عقوبة لهم ، بل يأخذها في نظير ما يهتمعون به في الدولة من المصالح العامة والخاصة ، ومقدارها دينار يؤخذ في السنة عن كل ذكر حر بالغ ، فلا تؤخذ من الأنثى ولا من الرقيق ولا من الصبي ، وقد اختلف العلماء في جواز زيادتها على الدينار ، فذهب بعضهم إلى أنه لا تجوز الزيادة عليه كما لا يجوز النقص عنه ، وذهب بعضهم إلى أن الدينار حد القلة ، فتجوز الزيادة عليه ، وذهب بعضهم إلى أنه لا توقيف في الجزية لا في القلة ولا في الكثرة ، فوكل هذا إلى نظر الإمام ، ليأخذ فيه بحسب المصلحة .

ولا شك أن هذه الجزية لا تذكر بجانب الزكاة التي فرضت على المسلمين ، لأنها تؤخذ من كل مسلم ، ولا تقدر بدينار كما تقدر الجزية ، بل تقدر بنسب مختلفة بحسب ما يؤخذ منه الزكاة ، فلا تقف عند حد في الزيادة ، بل تأخذ في الصعود كلها أخذ المال في الصعود ، وهي تؤخذ من النعمم والحبوب والثمار والذهب والنقضة والركاز والتجارة ، ثم لا يقتصر الأمر على هذه الزكاة المفروضة ، بل هناك صدقات كثيرة تؤخذ من المسلمين على وجه الذب .

وقد راعى الإسلام في هذا الفرق الكبير بين الزكاة والجزية أن المسلمين يأخذون من الزكاة نصيباً كبيراً لفقرائهم ، وما إلى

هذا من أمورهم الخاصة ، فلا يبقى منها بعد هذا إلا مقدار قليل
ينفق في المصالح العامة للدولة ، وهو يضاهي ما يؤخذ من غير
المسلمين من الجزية .

وإنما خُصَّ ما يؤخذ من المسلمين باسم الزكاة ، وخص ما يؤخذ
من غيرهم باسم الجزية ، لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام ،
وهي عبادة من عباداته الخمس ، فأطلق عليها اسم الزكاة أو الصدقة ،
لتبعد عن أن تكون ضريبة كالضرائب التي تتقاضاها الدول من
رعاياها ، وتكون فرضاً دينياً لا يرى فيها أحد غرماً ، بل يؤديها
خالصاً لله تعالى ، ولا يماطل فيها ولا يتهرب منها ، كما يتهرب الناس
من الضرائب التي تفرض عليهم ، وهذا إلى أن أهم مصرف فيها
مصرف الفقراء والمساكين ، وهو يعطيها اسم الزكاة والصدقة أيضاً ،
وهما اسمان محبوبان يرغبان في أداء هذا الفرض ، لأن الزكاة فيها
معنى النسيء والتطهير للمال ، والصدقة فيها قصد الثواب من
الله تعالى .

أما الجزية فهي في اللغة خراج الأرض ، فأخذت جزية الذي
منه ، وليس فيها ما يشعر بشيء آخر غير هذا المعنى ، وقال
الجرهري : الجزية ما يؤخذ من أهل الذمة ، وهي عبارة عن
المال الذي يعقد الكتاني عليه الذمة ، وهي فعلة من الجزاء ،
كأنها جرت عن قتله . ولو قال الجرهرى كأنها جرت عما يجب

عليه في نظير ما يجب له علينا ، لكان هذا أليق برسالة الإسلام ، لأن الإسلام دين يدعو الناس بالتى هى أحسن ، فيأخذهم بالسلم لا القتل ، أما قوله تعالى فى الآية — ٩ — من سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فقد ورد فى قوم حاربوا المسلمين ، وهم نصارى الشام من العرب والروم ، فأمر المسلمون بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم خاضعون لهم ، فلا يفيد قوله (وهم صاغرون) إلا معنى الخضوع وإيثار السلم على الحرب ، وليس فيه شيء من الذلة والمهانة ، لأن الإسلام لا يقصد إذلال الناس ولا إهانتهم ، وإنما يقصد إرشادهم وهدايتهم .

على أن الإسلام قد راعى حكم اللغة فى إطلاق لفظ الجزية على ما يؤخذ من أهل الذمة ، وليس فيه ما يوجب إطلاق لفظها عليه من جهة الدين ، ولهذا طلب نصارى تغلب من عمر بن الخطاب أن يضاعف ما يأخذ منهم على أن يسميه صدقة لاجزية ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، ولم ير حرجاً فى إطلاق لفظ الصدقة على ما يؤخذ منهم ، لأن الإسلام أرقى من أن يحمد فى سياسته على الألفاظ : ما دامت الحقائق هى الحقائق ، وما دام تغيير اللفظ لا يغير شيئاً من أمرها ، وقد يفيد فى تهوين تلك الحقائق فى اللفظ

الذى يراد لها ، وقد اختلف الفقهاء فيمن تؤخذ منه الجزية من أهل
الاديان ، فذهب الشافعي إلى أنها لا تقبل إلا من أهل الكتاب
والمجوس عرباً كانوا أو عجماء ، وحبسته في هذا آية التوبة السابقة ،
وما عمله النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ الجزية من مجوس
البحرين ، وذهب مالك والأوزاعي وغيرهما إلى أنها تؤخذ من كل
كافر كتابي أو غير كتابي عربي أو غير عربي ، وهذا القول أرجح
من القول الأول ، لأننا إذا لم نقبل الجزية من غير الكتابي
والمجوسي فقد أكرهناه على الاسلام ، وقد قال الله تعالى في
الآية — ٢٥١ — من سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد
استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ولأن
المجوس ليسوا أهل كتاب ، لأن أهل الكتاب في القرآن هم اليهود
والنصارى ، والمجوس يعبدون النار ، ولا فرق بين عبادة النار
وغيرها مما يعبده المشركون ، فلتؤخذ الجزية منهم جميعاً ، فإن قيل
إن المجوس لهم شبهة كتاب ، لأنهم كان لهم نبي قديم ، أوجب بأن
كل أمة بعث فيها نبي من الأنبياء ، كما قال تعالى في الآية — ٢٤ — من
سورة فاطر (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

ولا شك أن هذه الحرية الدينية مفخرة من مفاخر الإسلام ،

وهي الحرية التي يعيش في ظلها أهل الأديان آمنين على أديانهم ، فلا يكرههم أحد على تركها ، ولا يؤذيهم أحد بالطعن والسب فيهم ، لأن الإسلام دين كريم لا يأخذ الناس بالسب والشتم ، وقد نهى المسلمين عن هذا في الآية — ١٠٨ — من سورة الأنعام (ولا تنسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا ما لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) على أن الإسلام مع هذا أباح لأهل هذه الأديان أن يجادلونا في الدين ، ولكن في حدود الأدب وإرادة الوصول إلى الحق ، كما قال تعالى في الآية — ٤٦ — من سورة العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) .

وقد أتت على المسلمين مصور مظلمة قامت فيها حروب بينهم وبين أهل الأديان ، فأنسبهم بعض ما يجب عليهم لأهل الذمة بينهم ، ولكن مثل هذا لا يمكن أن يحسب على الإسلام ، وقد يكون لأهل الذمة سبب فيه بإظهارهم الميل إلى من يحارب المسلمين من أهل دينهم ، ولا يمكن أن يحتج على جنوح الإسلام للشدة مع أهل الأديان بآيات القتال ، لأنها وردت فيمن يقاتله من أهل الأديان ، فلا يدخل فيهم من يجمعهم والمسلمين ذمة واحدة ووطن واحد .

نعم قد وردت أحاديث لا توافق ما سبق تقريره في معاملة أهل
الاديان في داخل دولة الإسلام ، مثل ما رواه أبو هريرة رضي الله
عنه : لا تبدأوا اليهود والنصارى بالإسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في
طريق فاضطروه إلى أضيقه . ولكن هذا الحديث وأمثاله لم يتفق
الفقهاء على الأخذ به ، فلم يعمل به ابن عباس وطائفة من الشافعية ،
وجوزوا ابتداء اليهود والنصارى وغيرهم بالإسلام ، وهذا هو
الأرجح ، بل هو الذي يجب الأخذ به ، لأن مثل ما رواه أبو هريرة
يضر الإسلام ولا ينفعه ، وأخذ الناس بالحسن يرضيهم فيه ،
ويقوم برهانا على حسن آدابه ، ودليلا على كرم أخلاقه ، ولا يصح
أن نبتدئ غيرنا بالسيئة مع أن الله قد أمرنا أن ندفع السيئة
بالحسنة ، فقال تعالى في الآية - ٢٤ - من سورة فصلت
(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا
الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)

وقد كان هناك فريق آخر عاشر المسلمين في عهد النبوة ولم
يكن من اليهود والنصارى والمجوس ، بل كان يظهر الإسلام ويبطن
الكفر ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم ظاهرا ، ووكّل باطنهم
إلى الله تعالى ، واكتفى بدم نفاقهم على العموم ، وبعدم الاعتماد
عليهم في أمور الدولة ، لأنهم لا يخلصون لها ، فإذا تولى بعضهم
أمر آفيا أساء فيه ، ولم يحسن القيام به ، وقد كان بعضهم يرتكب

بعض ما يدل على نفاقه ثم ينكره ، فيهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بقتله ، فينهاه عن هذا ويقول له : فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه منافق ، ولكنه لا يرضى بقتله ما دام ينكر نفاقه ، ولا يصل به الأمر إلى قتال المسلمين ، والإسلام لا يقاتل إلا من يقاتله .

(٢) نظام الشعوب في الدولة

كانت الدولة الإسلامية في عهد النبوة تشمل أفراداً من الفرس والروم والحبشة واليهود ، ولكنهم كانوا قلة لا تذكر بجانب العرب الذين دخلوا جميعاً في الإسلام ، فكان ممن دخل في الإسلام من الفرس ساسان الفارسي وفسرس اليميني الذين كان يطلق عليهم لفظ الأبناء ، وكان ممن دخل في الإسلام من الروم صُبيح الرومي وبعض من الروم في الشام ، وكان ممن دخل في الإسلام من الحبشة بلال بن رباح وغيره من موالى الحبشة في الإسلام ، وكان ممن دخل في الإسلام من اليهود عبد الله بن سلام وغيره من يهود العرب .

وكان الإسلام ينظر إلى هذه الشعوب كلها على السواء ، ولا يميز العرب الذين يؤلفون الكثرة الغالبة في الدولة بشيء ، لأن الله تعالى لم يختار نبيه صلى الله عليه وسلم من العرب ليؤلف باسمهم دولة في الأرض ، ولا ليجعلهم سادة على الشعوب ، بل لينشر

دينه في الناس كافة ، فإذا قامت له دولة في الأرض استوى فيها
الناس كافة ، فلا يمتاز فيها عربي على فارسي ، ولا يمتاز فيها فارسي
على رومي ، ولا يكون فيها أثر لعصبية من العصبيات ، بل يكون
التفاضل فيها بالعمل الصالح ، كما قال تعالى في الآية — ١٣ — من سورة
الحجرات (يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم
إن الله عليمٌ خبيرٌ) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : الناس
سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي
على عربي إلا بالتقوى .

وهذا هو أصل المساواة بين الشعوب ، وقد جاء به الإسلام
كما جاء فيما سبق بأصل المساواة بين الأديان ، فجعل الشعوب كلها
سواء في الحقوق الوطنية ، كما جعل أهل الأديان كلهم سواء في
هذه الحقوق ، لأن سياسته إنسانية ترمي إلى خير الشعوب كلها ،
وتريد هدايتهم وإرشادهم ، ولا ترمي إلى تسليط بعض الشعوب
على بعض ، كما ترمي السياسة القومية التي تأخذ بها الدول الكبرى
في عصرنا ، وتزعم كذباً أنها تقصد إلى خير الإنسانية ، وأنها
تحارب استعباد الناس بعضهم لبعض ، مع أنها سياسة قائمة على
التعصبات القومية التي توقع أهلها بعضهم في بعض ، وعلى التعصبات
الوطنية التي توقع أهلها بعضهم في بعض ، وعلى التعصبات الدينية

التي تفرق بين أهل الغرب وأهل الشرق ، وإنما هي مزاعم تخدع بها الشعوب الضعيفة ، لتقدمها ضحايا في حروبها ، وتؤثر بها في عقول المخدوعين بها من أبنائها .

والإسلام ينادي بها بسياسة إنسانية صريحة ، لا يتخدع بها شعباً من الشعوب ، ولا يطمع بها في ثروة أمة من الأمم ، وإنما يريد الهداية والإرشاد ، واستخلاص حقوق الضعفاء من الأقوياء ، والعدل الشامل للناس جميعاً ، والحكم الذي لا يفرق بين دين ودين ، ولا بين شعب وشعب ، ولا بين شرق وغرب ، ولا يحارب شعباً في قوميته أو لغته ، بل يترك لكل شعب مميزات من لغة ونحوها ، ولا يهمه شيء من أمرها ، لأن رسالته دينية لا قومية ولا لغوية ، فلا يهمه إلا الدعوة للدين ، ولا تهمه الناحية القومية واللغوية .

ولهذا أباح الإسلام لأفراد الشعوب أن يصلوا إلى أسمى المناصب في دولته ، وقديماً كان النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم كما ينظر إلى قومه من العرب ، فقرَّب سلمان الفارسي منه حتى كان يقول فيه : سلمان منا أهل البيت . وقرب صُهَيْباً الرومي حتى كان لا يفارقه في أمر من أموره في السلم والحرب ، وقرب بلال ابن رباح الحبشي حتى جعله مؤذنه في الصلاة ، وجعله خازن بيت المال ، وهو منصب يضاهي منصب وزير المالية في الحكومات الحاضرة .

وقد كانت العربية لغة الدولة في هذا العهد ، ولكنها لم تفرض فيه على غير العرب من الشعوب ، بل أباح الإسلام لمن يدخل فيه من هذه الشعوب أن يؤدي فرائضه من الصلاة ونحوها بلغته ، وهذا هو مذهب الفقهاء الذين فرقوا بين وظيفة الدين واللغة ، فلم يرضوا أن يستخدم الإسلام في فرض العربية على غير أهلها ، ولا أن تقف اللغة عقبة في سبيل من يريد أن يعتنقه ، لأن الدين اعتقاد بالقلب وعمل بالحوارج ، فاستوى فيه اللغات كلها ، ولا تتعين فيه لغة منها ، ولا يخفى أن تكليف شعوب الأرض كلها بتأدية فرائضهم بلغة واحدة فيه من العنّت ما فيه ، والإسلام دين يُسّر لا عُسْر ، ولا يرضى أن يقف مثل هذا في سبيل الاهتمام به .

(٤) نظام الطبقات في الدولة

ينقسم الناس من جهة الثروة إلى ثلاث طبقات : الطبقة الفقيرة ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الغنية ، وقد ذهبت بعض المذاهب الاشتراكية إلى وجوب التسوية بين الناس في الثروة ، فأُنكرت حق الملك والإرث ، وجعلت الحق فيهما للدولة لتوزع الثروة بين الناس على السواء ، ولكن الإسلام دين وسط لا يرى الغلو فيما يأتي به من وجوه الإصلاح ، كما قال تعالى في الآية — ٤٣ — من سورة البقرة (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً) فلا يمكنه أن

ينسكح حق المالك والإرث ، لأنهما من الحقوق الطبيعية للإنسان ، ولا بدّ منهما لتقام نظام العمران .

ولا شك أن مشكلة الفقر هي التي يجب حلها في نظام الطبقات ، لأنه لا يصح أن يعيش الغني في رغد الحياة ورفاهيتها ، ثم يعيش الفقير بجانبه لا يجد ما يسد به قوته وقوت عياله ، لأن هذا من الظلم الذي لا يصح السكوت عليه ، ولا يجوز للحكومة أن تترك أمره للأفراد ، وهم من طبعهم الشح والبخل ، بل هم يطعمون فيها في أيدي الفقير ، فأو تركوا لأنفسهم لم يعطوه شيئاً ، ولتركوه في فقره إلى أن يهوجوه إلى ذل السؤال ، وفي هذا من الممار على الأمة ما فيه ، والحكومة مسئولة عن كل عار يلحق الأمة ، ومطالبة بالعمل على إزالته .

وقد عالج الإسلام الفقر بأن جعل للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء ، ثم جعله نبيها دينياً وركناً من أركانها الخمس ، بل جعله عبادة مثل الصلاة والصوم والحج ، وسماه زكاة إشعاراً بأنه يزكّي أموالهم ويطهرها ، فلم يجعله تبرعاً يترك لإرادة الأغنياء ، ويكون فيه منّة لهم على الفقراء ، أو شعور بالهزة عند الإعطاء ، لأن في هذا ما يؤلم الفقراء ، ويشهرهم بالذلة عند الأخذ .

ثم جعل هذا الحق في أموال الأغنياء نسبياً يصعد مع الثروة إذا صعدت ، وهو يبلغ في بعض الأموال إلى نسبة العُشْر ، ولم يقصره على صنف من الأموال ، بل جعله في الماشية

والحبوب والثمار والذهب والفضة وعروض التجارة ، ليكون
للفقراء هذا الحق في كل ثروة ، ولا يفلت منه غنى من الأغنياء ،
وقد راعى الإسلام في جعل هذا الحق نسبياً أن نفقة المعيشة تتبع
ثروة الأمة صعوداً وهبوطاً ، فيجب أن يكون حق الفقراء تابعاً
لنسبة ثروة الأمة ، لئلا يمكنهم أن يعيشوا بجانب الأغنياء عيشة تليق
بكرامة الإنسان ، ولا ينزلوا فيها إلى مرتبة لا تليق بكرامة أمتهم .
ثم جعل أخذ هذا الحق من عمل الحكمة ، بل جعله أهم عمل
في أعمالها ، فهي التي تقوم بأخذ من الأغنياء ، وهي التي تقوم
بتوزيعه على الفقراء ، فلا تتركهم يسعون بنفوسهم في أخذ حقهم ،
لأن في هذا إذلالاً لهم ، وإلجاء لهم إلى معرفة السؤال ، وهذا إلى
أن بعض الفقراء قد يتخلف عن السؤال فلا يصل إلى حقه ،
وبعض الفقراء قد يلجئ في السؤال فيأخذ أكثر مما يستحق .

وبهذا كله يعيش الفقراء في الإسلام سعداء بجانب الأغنياء ،
لا يحسدونهم على غناهم ، ولا يضرونهم شيئاً من الحق ، لأنهم
يأخذون نصيبهم من ثروتهم ، ويستولون عليه بطريقة لا تلحق
مذلة بهم ، وهم يستولون على هذا النصيب من غير أن يكون لهم
كسب فيه ، وإنما هو كسب الأغنياء واجتهادهم في الحياة ، وإنه
ليكفي الفقراء أن يحصلوا على هذا النصيب من كسب غيرهم ،
به في يستعينوا بالحياة ، ويضيفوه إلى كسب أيديهم ، لأن عليهم أن

يعملوا كما يعمل الأغنياء ، ولا يجوز أن يتكاثروا على نصيبهم في أموالهم
وهناك أمر آخر لجأ إليه الإسلام في علاج ما بين
الأغنياء والفقراء ، وكان له أثر كبير في القضاء على الشعور بالفقر
والفتن بين الناس ، وذلك أنه سوى في المازلة بين الفقراء والأغنياء ،
فلم ينزل الفقر بأحد عنده ، ولم يرفع الغنى أحداً عنده ، بل كان
الناس سواء عنده فقراؤهم وأغنياؤهم ، يناديهم جميعاً بأسمائهم ،
ولا يخص الأغنياء باللقاب ترفعهم عن غيرهم ، فلم يكن في هذه
الدولة ألقاب تمنح للأغنياء كغيرها من الدول ، وإنما كان هناك
لقب واحد منحه النبي صلى الله عليه وسلم لهم جميعاً ، سراًهم فيه
بشخصه ، وسرى فيه بينهم ، وهو لقب الصاحب ، وقد سرقه بعض
الدول الحديثة وإن غيَّره إلى اسم الرفيق .

وهذا هو الذي أخذ الله تعالى به نبيه ، فهما أن ينظر إلى
الأغنياء بأكثر مما ينظر إلى الفقراء ، كما قال تعالى في الآية — ٨٨ —
من سورة الحججر (لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً
مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ) وكما عاتبه في أول سورة عبس حينما تصدَّى لأشراف
قريش وأعرض عن عبد الله بن أم مكتوم ، وكان قد جاءه وهو
مشتغل بدعوتهم فقال له : يا رسول الله ، أقرئني وعلمي مما عليك
الله . فأعرض عنه وعبس في وجهه ، فقال تعالى له في أول هذه

السورة (عبس) وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله
يسرّ كشيء ، أو يذكّر فتنتحه الذكرى ، أمّا من استغنى ، فأنت
له تصدّى ، وما عليك ألا يسرّ كشيء ، رأيتك من جهالك يسرى ،
وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى)

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوى بينهم جميعاً في
قسمة الغنائم ، فلا يميز فيها غنياً على فقير ، ولا شريفاً على غيره ،
بل كان يعطى منها للرجل سهماً ، ويعطى للفارس ثلاثة أسهم ،
سهماً له وسهمين لفارسه ، وكان يعطى أحياناً من يكرن ذا أثر في
الجهاد أكثر من نصيبه ، مكافأة له على حسن جهاده .

وكان أيضاً يسوى بينهم في الأحكام ، فينفذها في الغنى والفقير ،
ويأخذ بها القوي والضعيف ، وكانت الأمم قبله تنفذ أحكامها
في الضعفاء دون الأقوياء ، فكان اليهود إذا زنا الشريف فيهم تركوه ،
وإذا زنا الضعيف أقاموا عليه الحد ، وقد سرقت فاطمة بنت الأسود
المخزومية . وكانت من أشرف قریش ، فاهتم قومها بأمرها ،
وذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : نحن نفديها بأربعين
أوقية . فقال لهم : لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ، إنما
أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا
سرق الضعيف أقاموا عليه الحد .

وهكذا كانت مساواة عامة شاملة في هذه الدولة ، فنعم بها
الفقراء قبل الأغنياء ، وسعد بها الضعفاء قبل الأقوياء .

(٥) نظام الحكم في الدولة

وظهر الإسلام والملوك ورجال الدين قد استبدوا بالناس ،
فالملوك قد استبدوا برأيهم في الحكم ، واستأثروا بالأموال التي
يَجْبُونُهَا لأنفسهم ، قلم ينفقوا إلا قليلاً منها في المصالح العامة ،
ورجال الدين قد أقاموا أنفسهم وسطاء بين الله والناس ، فاستبدوا
بأمر الدين ، كما استبد الملوك بأمر الحكم ، وتعالى كل منهم على
الناس ، حتى وضعوا أنفسهم في موضع الآلهة والأرباب ، وحتى
دان الناس لهم بالعبودية من دون الله ، كما قال تعالى في الآية
٣١ — من سورة التوبة (اتخذوا أربابهم وربانهم أرباباً
من دون الله) .

فقتضى الإسلام بظهوره على استبداد رجال الدين في الأمور
الدينية ، ولم يجعل بين العبد وربه واسطة كما في غيره من الأديان ،
ولم يجعل لرجال الدين سلطة على غيرهم ، بل سَوَّى بينهم وبين
غيرهم في الدين ، كما سَوَّى بين الناس جميعاً في الدنيا ، ثم قضى على
استبداد الملوك في أمور الحكم ، وعلى استئثارهم بأموال الدولة
لأنفسهم ، فجعل للرعية حقاً في مشاركتهم في أحكامهم ، فلا يحكمون

إلا بعد أن يأخذوا رأى رعيتهم فيها ، وهذا هو حكم الشورى الذى لم يكن له وجود قبل الاسلام ، فسنة الاسلام للمسلمين ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه فى أمور الحكم ، كما قال تعالى فى الآية - ١٥٩ - من سورة آل عمران (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنِتَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْنِفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ومدح الذين يأخذون بحكم الشورى ، فقال فى الآية - ٣٨ - من سورة الشورى (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ) .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه فى أمورهم ، ويأخذ فيها برأىهم ، وكان رأيهم يخالف رأيه فى بعض الأوقات ، فيعمل برأىهم ، ولا يؤثر رأيه على رأى جماعتهم ، جمعاً للكلمة ، وتعليماً للحكام أن يأخذوا برأى الجماعة فى الحكم ، ولا يتعصبوا لرأىهم عند الاختلاف فى الرأى ، وقد اختلف هو وفريق من أصحابه فى الخروج إلى المشركين فى غزوة أحد ، فرأى هو وفريق منهم عدم الخروج إليهم ، ورأى فريق آخر أن يخرجوا إليهم ، وكان هذا الفريق أكثر عدداً من الفريق الأول ، فأخذ برأى هذا الفريق وإن كان يخالف رأيه ، لأنه أكثر عدداً من الفريق

الذي يرافقه في الرأي ، وقد وضع بهذا أول أصل في حكم الشورى ، وهو الأخذ برأى الأكثر عند الاختلاف في الرأي ، ولو كان رأى الأقل أرجح من رأى الأكثر ، لأن رأى النبي صلى الله عليه وسلم كان أرجح في غزوة أحد ، ومع هذا تركه إلى رأى الفريق الأكثر عدداً ، لأن أرجحية الرأى مسألة تقديرية ، وقد يشتهيه أمر ما على الناس ، فلا يمكن اتفاقهم عليها ، فلا يبقى إلا أن يكون ذلك الأصل هو المعوّل عليه عند الاختلاف في الرأى ، لأن الموازنة بين عدد المختلفين في الرأى ترجع إلى حكم الحس ، فلا يمكن أن يشتهيه أمرها كما تشتهيه أرجحية الرأى ، والاختلاف في الرأى إنما يكون في الأمور الظنية التي يعذر الخطأ فيها ، فيجوز الأخذ فيها بالأرجح من باب أول .

كان الأخذ بالشورى عاماً في المسلمين ، فدخل فيه خاصّتهم وعامّتهم ، ويدخل فيه رجالهم ونساؤهم ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في صلح الحُدَيْبِيَّة أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا هديهم ليتحلّلوا من عمرتهم ، فلم يبادروا إلى امتثال أمره ، لأنهم كانوا يرون في هذا الصلح غيبناً لهم ، فدخل على زوجه أم سلمة يستشيرها في أمرهم ، فقال لها : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا . فقالت له : يا رسول الله ، أعذرهم ، فقد حمّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح ، فهم

لذلك مكر و بون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد ،
فإذا رأوك تبعوك . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وعمل بما
أشارت به ، فخلق رأسه ونحر هديه ، فلما رأوه حلقوا رؤوسهم
ونحروا هديهم .

ثم سلك النبي صلى الله عليه وسلم في أموال الدولة مسلكا يخالف
مسلك أولئك الملوك ، فكان ينفق أموال بيت المال كلها في المصالح
العامة ، ولم يكن يأخذ لنفسه منها إلا ما يعيش به كما يعيش فقراء
المسلمين ، لأنه كان يختار لنفسه مظهر الفقر ، ليضرب للحكام
أعلى مثل في التصفيف عن أموال الدولة ، ولتطيب نفوس الفقراء
بإشاره مظهرهم على مظهر الأغنياء ، فلا تذلل نفوسهم في الدولة ،
ولا تنحط منزلاتهم فيها عن منزلة الأغنياء ، بل تكون منزلتهم فيها
سواء ، ويكون أمرهم فيها واحداً .

(٦) نظام التعليم في الدولة

كان التعليم بما حثني الإسلام بالنهوض به في هذه الدولة ،
لأنه كان يدخل في المقصود من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما
قال الله تعالى في الآية — ٣ — من سورة الجمعة (هو الذي
بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال

مبين) وفي الآية — ١٦٤ — من سورة آل عمران (لقد آمن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

وقد كان العرب يعرفون بين أهل الكتاب بالأميين ، لأنهم لم يكونوا أهل دين وعلم ، وكانت الأمية فاشية فيهم ، فذكر الله تعالى في الآيتين أنه بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ليقضى على هذه الأمية ، ويحمل من العرب أمة ذات دين وحكمة ، والحكمة هي العلم النافع ، وهي تشمل كل المعارف الدينية واللسانية والعقلية ، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بما بعث من أجله فيهم ، فلم يمت حتى أكمل لهم ما بعث به من الدين ، ووضع لهم الأساس الذي ينهض بهم في العلم ، ويوصلهم إلى معرفة العلوم التي تقضى على الأمية بينهم ، وتظهر بينهم من العلماء والحكماء مثل من ظهر بين غيرهم ، على اختلاف أتواعهم ، وتفاوت مراتبهم .

وقد قرن الله تعالى في الآيتين الحكمة بالكتاب تنويها بفضلها ، ورفعاً لشأنها ، لأن الأمة لا تنهض بالدين وحده ، وإنما تنهض به وبالحكمة والعلم ، ولهذا نوّه بفضلها منفردة في الآية — ٢٦٩ — من سورة البقرة (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

وكان مما قام به النبي صلى الله عليه وسلم لمحو تلك الأمية أن
أخذ في نشر القراءة والكتابة بين أصحابه ، حتى إنه كان يأخذ في
فداء الأسير في غزوة بدر من أربعة آلاف إلى ألف درهم ، فإذا
لم يكن له مال وكان يحسن القراءة والكتابة جعل فداءه تعليم عشرة
من غلمان المدينة ، وبهذا انتشرت القراءة والكتابة بين المسلمين ،
حتى قلَّ في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من لم يكن قارئاً كاتباً ،
ثم جعل طلب العلم فرضاً على كل مسلم ومسلمة ، ونوّه بشأن
العلم والحكمة ، فتنافس المسلمون في طلبهما ، ولم يفرقوا فيهما بين
علوم دينية وغيرها ، ولم يفرقوا بين من يأخذونها منه أن كان
مسلياً أو غير مسلم ، لأنهم قد أمروا بسؤال أهل الذكر من أهل
الكتاب ، فقال تعالى في الآية — ٤٣ — من سورة النحل
(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل
الذكر إن كنتم لا تعلمون) ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم
زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة السّعبريّة ، وهي لغة اليهود من أهل
الكتاب ، فانتشر بهذا طلب العلم بين أصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم ، وشارك فيه النساء الرجال ، فكان منهن معلمات كالشفاء
بنت عبد الله ، وكان منهن طالبات للعلم ، وقد كانت الشفاء تعلم
حفصة أم المؤمنين الكتابة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان
مسجد المدينة هو المدرسة العامة للرجال والنساء ، فكان الرجال

يجلسون فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الأيام التي جعلها لهم ، وكان النساء يجلسن إليه في الأيام التي جعلها لهن ، وكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم مدرسة خاصة لنسائه ، وكن يتعلمن فيه الكتاب والحكمة ، كما قال تعالى في الآية — ٣٤ — من سورة الأحزاب (واذكرونا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) وكانت عائشة أم المؤمنين أنبغ من تخرج من تلك المدرسة ، وفيها يقول عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، وما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً . ويقول أبو بردة الأشعري : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً . وقد سمرت بنت أختها عائشة بنت طلحة عند هشام بن عبد الملك ، فما تذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها إلا أفاضت فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمّته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة . ولا شك أن هذا يدل على أن العلم نهض في هذه الدولة على اختلاف أنواعه ، وعلى أن النهضة فيه لم تكن خاصة بالعلوم الدينية .

وقد نجحت هذه النهضة العظيمة كل النجاح ، حتى كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم علماء فضلاء ، يؤخذ العلم عنهم ، ويقتدى فيه بهم ، ولا أدلّ على هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم

فيهم : أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . وقد سار تلاميذهم على منوالهم ، ثم سار من بعد تلاميذهم على منوالهم ، حتى وصلت النهضة العلمية الإسلامية إلى ذروتها في عهد الدولة العباسية ، وصارت الأمة الإسلامية حاملة لواء العلم والحكمة في العالم ، وصارت مدارسها مقصد طلاب العلم والحكمة من كل الأمم .

(٧) مركز المرأة في الدولة

كانت المرأة قبل الإسلام في أحط منزلة في الحياة ، فلم يكن لها حق فيها بجانب الرجل ، ولم يكن هناك فرق بينها وبين الأمة التي تباع وتشترى ، ومن هذا أنه لم يكن لها حق في الإرث ، لأن الإرث كان مقصوراً على من يمكنه الدفاع عن الأسرة من الذكور ، ومن هذا أنها كانت تورث كما تورث التركة ، فكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته ، فيغضها حتى تموت أو ترد إليه ضداً عليها ، أو يتزوجها إن كانت جميلة ، فإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . ومن هذا أنهم كانوا يستحلون وأد البنات ، فإذا بشراً أحدهم بولادة أثنى أسود وجهه من الحزن ، فإما أن يمسكها على هُونٍ وذلة ، وإما أن يأخذها فيدسّها في التراب ، وهذا هو الواد الذي كان شائعاً بين العرب ، وبلغ من تعلقهم به أنهم كانوا يقولون : دفن البنات من المكرمات .

فلما ظهر الإسلام قضى على هذا كله ، ورفع منزلة المرأة في الدولة ، وجعل لها فيها من الحقوق مثل ما للرجل ، إلا بعض ما لا يذكر من الحقوق التي لا تؤثر في أمرها ، فأعطاهما حق الإرث من الأسرة ، وحرّم أن تورث كما تورث التركة ، ونهى عن وأد البنات بأشد ما يكون من الوعيد ، وأوجب الطاعة لها مثل الأب ، وجعل لها حقاً في كثير من أمور الدولة كالرجل ، فكان منهن المعلمات والمجاهدات والقائمات بأمور الأسواق ، وما إلى هذا من أمور الدولة ، وكن يشاركن الرجال في الحضور إلى المساجد ، قيود دين فيها الصلاة معهم ، ويسمعن الخطب والنصائح ، ثم ينصرفن إلى بيوتهن ، فيقمن بأمور المنزل ، بعد أن يشاركن الرجال فيما ينهض بهن .

وقد كان لهذا أثره في نهوض المرأة في هذه الدولة ، حتى إنها صارت تنافس الرجل في الحياة ، وتطالب بحقوقها إذا شعرت بأنه يحاول أن يغلبها عليها ، ومن هذا أنهن رأين الرجال يكادون يستأثرون بالدروس التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقيها في المسجد ، فطالبن منه حقهن في هذه الدروس ، فجعل لهن أياماً في الأسبوع يذهبن فيها إلى المسجد ، فيأخذن من هذه الدروس مثل ما يأخذ الرجال ، ومن هذا أن فتاة دخلت على عائشة فقالت لها : إن أبي زوّجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته وأنا كارهة .

فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ : إَجْلِسِي حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
فَجَلَسَتْ حَتَّى جَاءَ فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا فَعَلَ أَبُو هَارٍ ، فَأَرْسَلَى إِلَيْهِ فَأَتَاهُ ، فَرَدَّ
عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مِنْ زَوَاجِهَا بِابْنِ أَخِيهِ ، وَجَعَلَ أَمْرَهَا إِلَيْهَا تَخْتَارُ مِنْ
تَشَاءُ ، فَلَمَّا رَأَتْ هَذَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ أَجَزْتَ مَا صَنَعَ
أَبِي ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَنَّ النِّسَاءَ أَنَّ لَيْسَ لِلْأَبَاءِ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ . إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَقْتَدَارِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْمَرْأَةُ فِي هَذِهِ
الدَّوْلَةِ ، وَعَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَسْتَبْدَّ بِأَمْرِ مِنْ أُمُورِهَا ، كَمَا
كَانَ يَسْتَبْدُّ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ .

نَعَمْ إِنْ الْإِسْلَامُ جَعَلَ لِلرِّجَالِ الْحَقَّ فِي أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ
عَلَى نِسَائِهِمْ فِي بَيْوتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ — ٣٤ — مِنْ سُورَةِ
النِّسَاءِ (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ
بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِيعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا
عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) وَلَكِنْ هَذَا أَمْرٌ خَاصٌّ بِالْبَيْتِ فَقَطْ ، لِأَنَّهُ صَاحِبُ
الْبَيْتِ وَصَاحِبُ مَا فِيهِ مِنْ مَتَاعٍ ، فَمَنْ حَقُّهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ الْقَوَامَةُ
عَلَيْهِ ، عَلَى أَنَّ الْبَيْتَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَئِيسٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي شَأْوَئِهِ ،
وَيَدِيرُ أَمْرَهُ بِالشُّورَى الَّتِي يَدِيرُ بِهَا أَمْرَ الدَّوْلَةِ ، وَالرَّجُلُ أَوْلَى بِهَذَا
مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَهَذَا إِلَى أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

قضية مهمة لأكلية ، فلا تمنع أن تتولى المرأة أمر البيت إذا كانت تحسن التصرف فيه أكثر من الرجل ، وقد سبق أن هذا الحق للرجل في أمور البيت فقط ، فلا يتعداه إلى أموال المرأة الخاصة بها ، وما إلى هذا من أمورها التي لا تدخل في أمور بيت زوجها . وقد جعل الله تعالى في الآية للرجل حق تأديب المرأة ، وأباح له أن يصل في التأديب إلى ضربها ، وضرب النساء مكروه في الإسلام ، ولكن من المكروه ما يباح انتقام لما هو أكثر ضرراً منه ، والضرورات تبيح المحظورات ، فالضرب إنما يباح محافظة على رابطة الزوجية ، وهو يهون إذا ترتب عليه المحافظة على هذه الرابطة ، ومن النساء من تكفيه الموعظة الحسنة ، ومنهن من لا يفيد فيهن إلا الضرب ، وهو مع هذا ضرب خفيف يقصد به التأديب ، فيكون بعضاً خفيفة ، ويتقى فيه الوجه ونحوه من الجسم ، وهو على كل حال مباح لا واجب ولا مندوب ، فإذا لم ترتب عليه فائدة لم يكن هناك معنى لارتكابه ، وإذا روى المنع منه لم يكن هناك حرج في المنع منه .

(٨) أهداف الدولة

كانت أهداف الدولة الإسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول ، فالدول كانت ولا تزال تهدف إلى سيادة شعبها على غيره .

من الشعوب . فتتعارض في هذا أهدافها ، وتقع به في حروب
لا نهاية لها ، لأن كل دولة تريد أن تسود غيرها ، وتوسع ملكها
بين الدول ، حتى تكون أعظم دولة في الأرض ، وحتى تستأثر
بكل خيرات الأرض لأهلها ، ولا يكون لغيرهم إلا فتاة موائدهم ،
وهذا هو الطمع المردول ، والجشع الممقوت ، والطغيان الذي
يشير الحروب بين الشعوب ، ولا غاية له إلا العظمة الكاذبة ، ولا
هدف له إلا المجد الكاذب .

أما الدولة الإسلامية فكانت أهدافها لا ترمى إلا إلى تبليغ
الدعوة الإسلامية ، ولم يكن يقصد من الدعوة الإسلامية سيادة
شعب على شعب ، ولا طمع في ملك أو إمارة ، وإنما كان يقصد
منها الدعوة إلى توحيد الله ، وإلى الحكم بالعدل بين الناس ، وهما
غائتان من أشرف الغايات ، وغرضان من أشرف الأغراض ،
لأن عبادة الأوثان والأصنام ونحوها جهالة تحط بأصحابها ، وتنزل
بهم إلى مرتبة دون مرتبة الجناد أو نحوه مما يعبدونه ، فإذا كانوا
يعبدون إنساناً من ملك أو نحوه طغى فيهم ، واستغل جهلهم في
سبيل مآربه وأغراضه ، وعمل على أن يبقوا في جهلهم أو يزيدوا
فيه ، ليبقوا على عبادتهم له ، ولا يقل الغرض الثاني عن هذا الغرض
تنبلاً ، بل يكاد يساويه شرفاً وفضلاً .

وقد حدد الاسلام الهدف الأول بقوله تعالى في الآية — ٦٤ —

من سورة آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وحدد الهدف الثانى بقوله تعالى فى الآية — ٥٨ — من سورة النساء (إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعیمًا يعظكم به إن الله كان سمیعًا بصیرًا)

وهو يدعو إلى هذا كله بالسلم لا بالحرب ، كما قال تعالى فى الآية — ١٢٥ — من سورة النحل (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) فلا تؤدى أهداف الدولة فيه إلى حروب كما تؤدى أهداف الدول الأخرى ، لأنها هى الأهداف التى يمكن اتفاق الشعوب عليها ، ولا يجد شعب من الشعوب غضاضة فى الأخذ بها ، لأنها لا ترمى إلى سيادة شعب عليه ، وإنما ترمى إلى سعادته فى الدنيا والأخرى .

(٩) نظام الحرب فى الدولة

لم تكن الحرب فى الاسلام لأجل السيادة والفتح ، فلم يكن يرغب فيها كما ترغب الدول الاستعمارية فيها ، ولم يكن يقصد بها استعباد الشعوب كما تقصد هذه الدول بها هذا الاستعباد ، وقد

دعاه هذا إلى أن يسنَّ في الحرب سنناً جديدة تخفف من أمرها ،
وتقلل من شرورها ، لأنه كان يرى أنها شر لا خير ، فلم يجعلها
حرباً انتقامية يباح فيها كل شيء ، ويطلق فيها العنان لسورة الغضب ،
فلا تراعى فيها رحمة ولا عدل ، ولا تكون لها حدود تقف عندها
ولا تتمدها ، بل يجب أن تراعى فيها هذه الحدود :

(١) أن تكون للدفاع عن النفس ، وبهذا أبطل الحروب
الهجومية التي كانت تقوم قبله في كل وقت ، ويمتدئ فيها القوى
على الضعيف ، فيسترقه ويستعبده ، ويستبيح أرضه وماله ، وقد
سارت الدولة الإسلامية على هذه السنة ، فلم تحارب إلا من حاربها ،
ولم تقمها حرباً عامة على كل من خالفها ، بل حاربت قريشاً أولاً
حين حاربتها ، ثم حاربت مشركي العرب عامة حين حاربوها ، ثم
حاربت الروم والفرس حين ابتدؤوها بالحرب ، ومع هذا
رغب الاسلام في العفو عن المعتدين ، وآثر مقابلة الحرب بالسلم ،
إلى أن تكون الحرب ضرورة لا بُدَّ منها ، فقال تعالى في الآية
— ٤ — من سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن
عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين)

(٢) أن يكون الدفاع على قدر ما حصل من الاعتداء ،
فلا يصح أن يجاوز حده فيما يستعمل فيه من آلات حربية ونحوها ،
بل يجب أن يكون بمثل ما حصل من الاعتداء به ، كما قال تعالى
في الآية — ١٩٤ — من سورة البقرة (الشهر الحرام بالشهر

الحرام والحرمات قصاصاً فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

(٣) أنه يجب على المسلمين السكف عن القتال إذا كَفَّ
أعداؤهم . فيحرم عليه أن يعضوا فيه بعد طلب الصلح ، لأن الصلح
يجب عليهم إذا طلب منهم ، كما قال تعالى في الآية — ١٩٣ — من
سورة البقرة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةً ويكون الدين لله فإن
أنتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وكما قال في الآية — ٦١ — من
سورة الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله
إنه هو السميع العليم)

(٤) أنه يجب قصر الحرب على الجيش المحارب ، فلا يجوز
التعرض لغيره من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان ونحوهم ،
وقد روى في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد
امرأة مقتولة في بعض مغازيه ، فنهى عن قتل النساء والصبيان ،
وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقتلوا
شيخاً فانياً ولا صغيراً ولا امرأة . وروى أحمد وغيره أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : لا تقتلوا ذريرة ولا عسيفاً ^(١) وروى
أحمد أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تقتلوا الولدان
ولا أصحاب الصوامع ^(٢) .

(٥) أنه يحرم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار ، وقد روى

(٢) أصحاب الصوامع هم الرهبان

(١) العسيف الأجير

أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسلهم في بعث فقبضوا :
إن وجدتم فلاناً وفلاناً — لرجلين — فأحرقوهما بالنار . ثم قال حين
أردنا الخروج : إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً ، وإن
النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن وجدتموهما فاقتلوهما . وروى عنه
أيضاً أنه نهى عن المثلة .

(٦) أنه يحرم إتلاف الأموال إلا عند الضرورة القصوى ،
وقد روى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني
النضير وهم محاصرون ليحملهم على التسليم ، فلما رأوه يحرقه قالوا
له : إنك تنهى عن الفساد في الأرض ، فما بال قطع الأشجار
وتحريقها ؟ فكف عن القتل والتحريق ، ولهذا ذهب الأوزاعي
وأبو ثور إلى كراهية التحريق والتخريب في بلاد العدو ، واحتجوا
بأن أبا بكر كان يوصي جيوشه ألا يحرقوا ولا يخرّبوا .

(٧) أنه ينبغي التورع عن تجويع الأعداء بمنع الميرة عنهم ، وقد
روى أن ثمامة بن أثال منع ميرة اليمامة عن قریش حين أسلم ، فأخذهم
الجوع حتى أكلوا الجلود والجيف ، فذهب أبو سفيان إلى النبي
صلى الله عليه وسلم وقال له : ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ،
ثم قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع . فأمر ثمامة أن يرسل
الميرة إليهم .

(٨) أنه يحب الإحسان إلى الأسير ، وقد مدح الله تعالى من

يطعم الأسير في الآية — ٨ — من سورة الإنسان (ويطعمون
الطعام على حبّه مسكيناً ويتبها وأسيراً) وقد ذهب الحسن وعطاء
إلى أنه لا يجوز قتل الأسير، واحتجوا بأن الآية — ٤ — من سورة
محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقاب حتى إذا اثخنتموهم
فشدوا الوثاق وإمّا منّا بعداً وإمّا فداءً) قد اقتضت على المن
والفداء ، فيجب الاقتصار عليهما .

ولا شك أن هذه الحدود لم تكن موجودة في الحروب قبل
الإسلام ، لأنها كانت حروباً تقوم على الطمع والجشع ، ومن
يجارب على الطمع والجشع لا يكون في قلبه محل للرحمة ، ولا يتقيد
في حربه بمثل ماقيّد الإسلام الحرب به .

(١٠) احترام اليهود

كان الإسلام يكره الحرب لأنها تعوق ما يدعو إليه ، وتحول
دون الوصول إلى غايته من هداية الناس ، وقد بعث النبي صلى الله
عليه وسلم رحمة للعالمين ، والحرب لا رحمة فيها ولا رأفة ، ولهذا
دعا الناس جميعاً إلى السلام ، فقال تعالى في الآية — ٢٠٨ —
من سورة البقرة (يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة
ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ثم سعى في
عقد المعاهدات السلمية في الداخل والخارج ، فعقد النبي صلى الله
عليه معاهدة بين المسلمين ويهود المدينة ، ومعاهدات كثيرة بينه

وبين قبائل العرب قبل إسلامها ، وسعى إلى مهادنة قریش في عام
الحُدَيْبِيَّة ، وقد أبت مهادنته فلم يزل يرغبها فيها حتى هادنته ،
وكان في مهادنتها شروط قاسية على المسلمين ، فقبلها مع اعتراضهم
عليها ، ثم سعى في مهادنة ملوك عصره وأمرائهم ، فبلغهم دعوته
بكتب تفيض رأفة ورحمة ، ولا تدعو إلى حرب أو عداوة ، وإنما
تدعو إلى الهداية والرشاد .

وقد سعى إلى تلك العهود السلبية وهو قوى بربه ، قوى بإيمانه ،
قوى بجنوده الذين كانوا أقوى جنود في العالم ، وكان يدعوهم إليها
الإخلاص للناس ، ويحمله عليها إرادة الخير لهم ، فلا يخفي وراءها
شيئاً من الغش ، ولا يطوى نفسه عند عقدها على شيء من الخداع ،
ولا يهمله أن يكون غيره مخلصاً في عقدها أو غير مخلص ، لأن الله
تعالى أمره بمسألة من يسأله وإن لم يكن مخلصاً في مسألته ، كما قال
تعالى في الآيتين — ٦٠، ٦١ — من سورة الأنفال (وإن جنحوا
للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا
أن يخذعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)
ولهذا أمره الله بالوفاء بالعهود ، حتى يكون لها احترامها في
الدولة الإسلامية ، ولا تنظر إليها على أنها قصاصات من الورق ،
كما تنظر إليها الدول التي تقوم سياستها على الطمع والجشع ، فتلجأ
إلى المعاهدات في غير إخلاص ، وتريد بها الغش والخداع ، حتى
إذا تمكنت من مطامعها تنكرت لها ، ونبتتها نبذ النواة .

ولقد أكثر الله تعالى في القرآن من الأمر بالوفاء بالعهود ،
وحذّر المسلمين من نقضها أشدّ تحذير ، فقال تعالى في الآية — ٩١ —
من سورة النحل (وأوفُوا بعهدِ الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا
الأيمان بعد توحيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم
ما تفعلون) وقال في الآية — ٩٤ — من سورة الإسراء (وأوفوا
بالعهد إن العهد كان مسئولاً) وحذر من الاعتداء على قریش
بعد عهد النخديبية في الآية — ٢ — من سورة المائدة
(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن
تعتدوا واتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان
واتقوا الله إن الله شديد العقاب)

وقد أباح الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينقض عهده
إذا وقع ممن عاهده خيانة فيه ، ولكنه أوجب عليه أن ينقضه
على طريق واضح لا عوج فيه ولا التواء ، فقال تعالى في الآية
— ٥٨ — من سورة الأنفال (وإمّا تخافن من قوم خيانة
فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) وقد قيل في
تفسير الآية إنه إذا ظهرت الخيانة منهم بأمارات تلوح وتتمنح له من
غير أمر مستفيض وجب عليه قبل أن يبدأهم بشيء أن يعلمهم بنبذ
عهدهم ، وإذا ظهرت الخيانة له بأمر مستفيض كان له أن ينبذ عهدهم
من غير أن يعلمهم .

وقد بلغ من رغبة الإسلام في الارتباط باليهود السلبية أنه

يلزم الدولة بالعهود التي يعقدها أفرادها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ذِمَّةُ المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم ، ويجبر عليهم أقصاهم . ولا تنكاد توجد دولة تربط نفسها بعهود يعقدها أفرادها ، أما الإسلام فإنه يرتبط بعهود أفرادها ولو كانوا إناثاً أو أرقاء ، ولو لم يأذن لهم الإمام في تلك العهود ، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين في فتح مكة من أحمائها ، فلم يقبل أخوها عليُّ هذا منها ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بأمره ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ .

(١١) نظام الجاسوسية في الدولة

كان المنافقون في المدينة وما حولها جواسيس لأعداء المسلمين ، يطلعونهم على أخبارهم ، ويحتشدون في معرفة أسرارهم ليطلعوهم عليها ، كما قال تعالى في الآية — ٤٧ — من سورة التوبة (كَوْنُوا فِي غِيَاظٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُطْلَعُونَ عَلَيْكُمْ صُحُفَ السَّرْائِرِ) .

فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ جواسيس من المسلمين ، ليعملوا له بإزاء جواسيس الأعداء ، ويقوموا في السر بإفساد خططهم ، ويطلعوه على مؤامراتهم ، ويندسوا بين أولئك الأعداء كما يندس جواسيسهم بين المسلمين ، فيصرفوا أخبارهم وأسرارهم ، وليس في هذا ما يخذ على الإسلام . وإنما هو من

اليقظة التي يجب أن يأخذ بها المسلمون ، حتى لا يأخذهم عدوهم على غرة ، ولا يعيشوا في جهل بما يُدبر لهم ، وإنما يعيب المسلمين أن يأخذوا في تجسسهم بوسائل غير شريفة ، كاستخدام النساء فيها استخداماً غير شريف ، ونحو هذا مما تلجأ إليه الجاسوسية في الدول التي لا يهتمها الشرف في الوصول إلى غايتها ، وقد عاب المنافقون تجسس النبي صلى الله عليه وسلم . فرد الله تعالى هذا عليهم في الآية — ٦١ — من سورة التوبة (ومنهم الذين يؤذون نبي ويقولون "هو أذن" قل "أذنٌ خيرٌ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين" ورحمةٌ للمتقين آمنوا منكم " والذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ أليم) فرد عليهم بأنه لا عيب عليه في ذلك ، لأنه لا يريد به إلا أن يعيش المسلمون في أمان من أعدائهم ، ولا يقصد به شراً لغيرهم ، فهو من الحذر واليقظة المحمودة ، وليس فيه شيء يعاب أو يذم .

نعم كان النبي صلى الله عليه وسلم يدفع بعض المسلمين الذين يعملون في السر إلى اغتيال بعض أعدائه ، ولكنه لم يفعل هذا إلا مرتين أو ثلاثاً ، ومع أناس كانوا يؤلِّجون عليه الأعداء ، ويجمعون القبائل لحربه ، مثل كعب بن الأشرف وأبي رافع سلام ابن أبي الحقيق ، وكانا من أخطر اليهود على الإسلام ، وكل منهما كان يعمل في السر لجمع القبائل على حرب المسلمين والقضاء عليهم ،

فكان اغتيالها في سبيل الدفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس مشروع في كل الشرائع ، وقد تكون هذه الوسيلة في الدفاع عن النفس أقل ضرراً من الحرب التي تقوم بجها ، فيكثر فيها القتل ، ويعم فيها الضرر ، أما هذه الوسيلة فإنها خفية قد يجهل الفاعل فيها ، فلا تقوم حرب بسببها ، ولا يتعدى القتل ما حصل فيها .

(١٢) نظام بيت المال

كان كل مال الدولة قبل الإسلام للسلوك والأمرام ، وكانوا ينفقونه على أنفسهم وبطاتهم في أقصى ما يكون من التبذير ، ولا يبقون منه لمصالح الرعية إلا القليل ، فلما ظهر الإسلام جعل مال الدولة من حق بيت المال ، فلا يأخذ منه رئيس الدولة إلا أجره الذي يفرضه المسلمون له ، ويكون شأنه في هذا شأن الأجير ، يستحق ما يأخذه على عمله ، ولا يأخذ من بيت المال إلا ما يستحقه عليه ، فلا يكون هناك إسراف ولا محاباة له ، وإنما يأخذ ما يقوم بنفقته ونفقة أهله ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ لنفسه قوت سنة ، ولما سكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة في وجوه الخير ، ثم يقترض ما ينفقه على نفسه باقى السنة ، ولهذا توفي ودرعه مرهونة على شعير استدانة لأهله .

وكانت موارد بيت المال ثلاثة موارد :

١ — الزكاة ، وكان ينفق منها على الأصناف الواردة في الآية

— ٦٠ — من سورة التوبة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين

والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) وقد أبطل عمر بن الخطاب في خلافته ما يعطى للمؤلفة قلوبهم ، لأن الإسلام استغنى في خلافته عن تأليفهم .

٢ — الغنائم ، وهي ما أخذه المسلمون بالقتال ، وكانت تقسم خمسة أخماس ، يعطى خمس منها للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويعطى أربعة أخماسها للمقاتلين ، وكان الخمس الأول يقسم خمسة أسهم : سهم للنبي صلى الله عليه وسلم ينفقه في السكرع^(١) والسلاح ، وسهم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، وقد ذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت لهم ، فيجوز إعطاؤه لغيرهم ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وقد ذهب أصحاب الرأي إلى جواز قصر هذا الخمس على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وذهب كثير من الفقهاء إلى أن الغنائم إذا كانت من غير المنقولات يجوز للإمام أن يقسمها بين الغانمين ، وأن يتركها لأهلها على خراج أو على معاملة من غلبتها ، وإن يئمن بها عليهم ، ولا يخفى أن هذا يجوز في المنقولات أيضاً ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ردّ على بعض القبائل منقولاتهم ، ولا يخفى أيضاً أنه يجوز أن يعطى المقاتلون مرتبات من بيت المال ، على أن يستولى بيت المال في نظير هذا على الغنائم .

(١) هو خيل الجهاد ، والسكرع اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

٣ — النفي ، وهو ما يؤخذ من غير قتال ، كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة ، وهذا من حق بيت المال ، فلا يخمس كما تخمس الغنائم ، بل يصرف جميعه مصرفاً واحداً ، ولجميع المسلمين فيه حق ، لا فرق بين كبير وصغير ، وأمير وغير أمير ، فيعطى كل واحد منهم ما يستحقه ، وينفق منه على مصالحهم .

(١٣) ديوان الدولة

يظن كثير من الناس أن الديوان الإسلامي لم ينشأ قبل خلافة عمر بن الخطاب ، والحقيقة أن هذا الديوان نشأ قبل خلافته ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فكان يستعين بالكتاب من أصحابه في كتابة الوحي ، وفي غير هذا من أموره ، والذي حصل في عهد عمر بن الخطاب أنه اتخذ له نظاماً جديداً ، وكتاباً يعملون فيه بأجر ، وقد كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يتطوعون بكتابته له ، ولا يأخذون أجراً عليها ، لأنهم لم ينقطعوا لها كما انقطع كتاب الديوان في خلافة عمر ، وقد كانت أعمال الدولة قليلة محصورة ، وكان ما في بيت المال ينفق أولاً بأول ، فلم يقتض هذا كتاباً ينقطعون له ، ويأخذون أجراً عليه . وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين كاتباً ، وكان لكل عمل كتابي كاتب أو أكثر يقوم به ، فمنهم من كان يقوم بكتابة الشؤون الخارجية ، كعبد الله بن الأرقم ، وكان يجيب الملوك والأمراء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقرأ له ما يكتبونه إليه ،

وقد بلغ من ثقته به في هذا الشأن انه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك ، فيكتب ويختتم ولا يقرأ ما يكتبه عليه لثقته فيه .
ومنهم من كان يقوم بكتابة الوحي ، وكان رئيسهم زيد بن ثابت الأنصاري ، وقد كان القرآن ينزل مفرقاً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال ، فكانوا يكتبون ما ينزل منه في السُّبب والخاف والأكتاف (١) .

ومنهم من كان يقوم بكتابة المداينات والمعاملات ، كالمغيرة ابن شعبة والحسين بن نمر .

ومنهم من كان يقوم بالكتابة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في حوائجه ، كخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .
ومنهم من كان يقوم بخرص الثمار وكتابة ما عليها من الزكاة ، كحذيفة بن اليمان .

ومنهم من كان يقوم بكتابة النشائم وتوزيعها على المقاتلين على حسب القواعد الموضوعة لقسمتها ، كمُعَيْنِ قَيْب بن أبي فاطمة .
ومنهم حنظلة بن الربيع ، وكان يخلف كل كاتب في عمله إذا غاب عنه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع عنده خاتمه ، ويقول له : الزمّني وأذكرني بكل شيء أنا فيه . فكان لا يأتي على مال أو طعام ثلاثة أيام إلا أذكره ، فلا يبيت وعنده شيء منه .

(١) العشب أصل السعف الذي لا يثبت عليه الخوص من الجريد ، والخاف مجارة يفسد رقائق ، والأكتاف جمع كتف وهو عظم اللوح من الحيوان .

عظمة السياسة النبوية

لا شك أن من يطالع السيرة النبوية على هذا الترتيب الذي وضعته لها يجد أن السياسة الحكيمة كان لها أثر بارز في توجيهها ، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحي في كل أموره ، ولم يكن يجري عليه في كل حركاته وسكناته ، بل كان يتصرف كإنسان في كثير من الأمور ، ويأخذ بالاجتهاد فيما يتركه الوحي لاجتهاده ، فيسلك من ضروب السياسة ما يهيء له أسباب النجاح ، ولا يترك أموره تجري كيف تشاء ، بل يتخير لها السبل والأسباب ، حتى يصل إلى الغاية التي يقصدها من أقرب طريق ، ولا يترك نفسه للأحداث تصرفه في الحياة ، ، وتأخذه قبل أن يأخذها ، فلا يستطيع أن يعمل فيها شيئاً ، ولا يمكنه أن يصرف فيها أمراً ، بل تتصرف هي بأمره ، وتأخذه إلى حيث تريد ، ولا تمكنه من أن يصل إلى ما يريد .

فإذا درس المسلمون السيرة النبوية على ذلك الترتيب ، وتأملوا في ضروب السياسة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد عليها في نجاح أموره ، وعرفوا كيف كان يتخير ويتحيل ، وكيف كان يضع الأسباب قبل المسببات ، وكيف كان يرمى إلى المقاصد والغايات ، ولا يترك نفسه لأحداث الدهر وتقلباته - إذا درسوا ذلك كله اتخذوه نبراساً لهم في حياتهم ، فأخذوا فيها بضروب

السياسة التي تهيء لهم أسباب النجاح ، وأعدّوا لكل أمر عدّته ،
وهيّئوا لكل شيء أسبابه ، فلا تلعب بهم حوادث الدهر ، ولا
تأخذهم على غرّة وغفلة ، ولا يسبقهم أعداؤهم في ميدان العمل ،
ولا يفوزون عليهم في هذه الحياة ، ولا يأخذونهم بمكرأ وخداع ،
ولا يستأثرون دونهم بتصرف أمور الحياة ، ولا يجعلونهم ذيو لا
بين الدول والشعوب ، ولا يكون شأنهم بينهم كمن قيل فيهم :
وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْشَمُ

ولا يستأذنون وهم حضور

وإذا عرفوا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوس أصحابه
بالرفق ، ويأخذ من ينحرف منهم عن دينه باللين ، وعرفوا كيف
نجح فيمن كان منهم مخلصاً لدينه ، وفيمن لم يكن مخلصاً له ، إذا
عرفوا هذا أخذ بعضهم بعضاً بالرفق ، ولم يخرجوا فيما بينهم عن
الأصل الذي قام عليه الإسلام ، وهو الإقناع بالدليل ، والدعوة
بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا يكون بينهم شتم ولا سباب ، ولا
يكون بينهم عدااء ولا خصام ، بل عيشة حرة كريمة ، ووافق كامل
شامل ، وتعاون تام فيما ينفعنا في الدنيا والآخرة .

محتويات الكتاب

صفحة	صفحة
السياسة الخارجية من الهجرة إلى	مقدمة ٣
غزوة بدر	السياسة الداخلية قبل الهجرة
١ بين المسلمين وقريش ٧١	١ التلطف في الدعوة ٩
السياسة الداخلية من غزوة بدر	٢ اخفاء الدعوة ١٣
إلى صلح الحديبية	٣ التدرج في اخفاء الدعوة ١٦
١ بين المهاجرين والأنصار ٨٠	٤ البدء بدعوة الأقربين ١٧
٢ بين المسلمين واليهود ٨٥	٥ دعوة قريش ٢٠
٣ " " والمنافقين ١٠٠	٦ الهجرة إلى الحبشة ٢٥
السياسة الخارجية من غزوة بدر	٧ العرض على القبائل ٢٩
إلى صلح الحديبية	٨ " على أهل يثرب ٣٢
١ بين المسلمين وقريش ١٠٦	٩ مخالفة أهل يثرب ٣٤
٢ " " وباقي العرب ١٠٩	١٠ الهجرة إلى المدينة ٢٨
السياسة الداخلية من صلح الحديبية	١١ الائتمار بالنبي عليه السلام ٣٩
إلى فتح مكة	السياسة الخارجية قبل الهجرة
١ بين المسلمين والمنافقين ١١٤	١ بين المسلمين وقريش ٤١
السياسة الخارجية من صلح	٢ بين المسلمين والحبشة ٤٣
الحديبية إلى فتح مكة	السياسة الداخلية من الهجرة إلى
١ بين المسلمين وقريش ١١٦	غزوة بدر
٢ الآثار السياسية لصلح	١ بين المهاجرين والأنصار ٥١
الحديبية	٢ " المسلمين واليهود ٥٤
٣ بين المسلمين وباقي العرب ١٢٨	٣ " " والمنافقين ٦٥

صفحة

٦	بين المسلمين ونصارى	
١٧٨	العرب والروم	
١٨٢	بين المسلمين والفرس	
١٨٤	» » والحبيشة	
	الدولة الإسلامية في عهد النبوة	
١٨٥	١ رعايا الدولة	
١٨٨	٢ نظام الأديان في الدولة	
١٩٦	٣ نظام الشعوب في الدولة	
١٩٩	٤ » الطبقات في الدولة	
٢٠٤	٥ » الحكم في الدولة	
٢٠٧	٦ » التعليم في الدولة	
٢١١	٧ مركز المرأة في الدولة	
٢١٤	٨ أهداف السياسة	
٢١٦	٩ نظام الحرب في الدولة	
٢٢٠	١٠ احترام اليهود	
٢٢٣	١١ نظام الجاسوسية في الدولة	
٢٢٥	١٢ نظام بيت المال	
٢٢٦	١٣ ديوان الدولة	
٢٢٩	عظة السياسة النبوية	

صفحة

٤	بين المسلمين واليهود	١٢٠
٥	مكاتبة الملوك والأمراء	١٣٣
٦	» أمراء العرب	١٣٥
٧	» ملك الحبشة	١٤٢
٨	» » الروم	١٤٥
٩	» أمير مصر	١٤٩
١٠	» ملك الفرس	١٥١
١١	أثر مكاتبة الملوك والأمراء	١٤٥
	السياسة الداخلية من فتح مكة الى	
	الوفاة	
١	بين المسلمين والمنافقين	١٦٢
	السياسة الخارجية من فتح مكة الى	
	الوفاة	
١	بين المسلمين وقريش	
٢	» » وباقي العرب	١٦٩
٣	وفود العرب الى المدينة	١٧١
٤	انتهاء اليهود بين المسلمين	
	والمشركين	١٧٢
٥	قيام بعض الثورات	١٧٦